جامعة المنصورة

كليـة الآداب

الشخصية بين الواقعي والتخييلي في كتاب "على هامش السيرة" لطه حسين

إعـــداد

د. عبدالله محمد كامل عبدالغني

مدرس الأدب العربي الحديث – قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة دمياط

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة

العدد الثانى والسبعون – يناير ٢٠٢٣

الشخصية بين الواقعي والتخييلي في كتاب "على هامش السيرة" لطه حسين

د. عبدالله محمد كامل عبدالغني

مدرس الأدب العربي الحديث – قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة دمياط

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة التعرف إلى ملامح الشخصيات وكيفية بنائها سرديًا في كتاب "على هامش السيرة"، سواء ببعدها الفيزيائي أو الفكري أو الخُلقي، وخاصة تلك الشخصيات التي لها أصلٌ تاريخي واقعي؛ ووجودها مثبت في كتب السير والتراجم. فيقيم البحث مقارنة بين وصفها كما ورد في الأصل التاريخي وبنائها كما شيده طه حسين وأقام ملامحها وتكوينها. مع بيان صلة هذه البناء والتكوين بحركة الأحداث وتطورها في الحكاية.

كما تتناول الدراسة كذلك علاقة العتبات النصية من عنوان رئيس؛ ومقدمة وعناوين الفصول برسم هذه الشخصيات على يدّ طه حسين، وتأخذ الدراسة بتقسيم الشخصيات وفق صلتها بالأحداث ومدى فاعليتها فيها؛ فتنقسم إلى شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية. ويتوقف البحث أيضًا مع طرائق تقديم طه حسين في تقديم شخصياته، سواء أكانت من خلال تقنية الراوي (الغائب – المتكلم)، أو الحوار أو المنولوجات الداخلية. إن البحث في مجمله يدور حول تحديد موقع الشخصيات في كتاب "على هامش السيرة" بين الواقع التراثي المُثبت والمتخيل السردي؛ الذي اضطلع به طه حسين في كتابته لهذه الفصول من السيرة.

الكلمات المفتاحية: *الشخصية، الواقعي، التخييلي، على هامش السيرة، طه حسين*

Abstract:

This study aims to identify the features of the characters and how they are constructed narratively in the book "On the Margins of Sira", whether in their physical, intellectual or moral dimensions, especially those characters with a realistic historical origin and their prescence is fixed in the biographical and translation books. Therefore, the current research compares its description as mentioned in the historical origin and its construction as constructed and established its features and composition by Taha Hussein. It also clarifies the relevance of this construction and composition to the movement of events and their development in the story.

Furthermore, it deals with the relationship of textual thresholds from a main title, an introduction and titles of the chapters by drawing the characters by Taha Hussein. The characters are divided according to their relevance to events and their effectiveness; therefore, they are divided into main and secondary characters. This research also depends on the methods of how Taha Hussein presenting the characters, whether through the narrator's (absent-speaker) technique, dialogue or internal monologues. It revolves around locating the characters in the book of "On the Margins of Sira" between the proven heritage reality and the narrative imagination.

Keywords: personality/character, realism, imagination, On the Margins of Sira, Taha Hussein.

المقدمـــة :

تحتل الشخصية المكان الأبرز والأهم في بنية الرواية، حيث تعتمد عليها جميع عناصر الرواية فهي بمثابة العمود الفقري للحكاية، وهي كذلك الحاملة لمضمون ما يراد إيصاله من خلال بنائها الفكري والعقلي والسلوكي داخل العمل الروائي. فالشخصية في القصة هي مدار "المعاني الإنسانية؛ ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاصُّ أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي؛ بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما"[١].

---

١ – محمد الغنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٧، ص٥٢٦.

إن الشخصية عنصر قيمٌ لفهم الرواية لأنها لا تقوم إلا بوجودها، فمن خلالها تتشكل الأصوات، وعن طريقها يقوم الحوار، وتنفث الروح في الفكرة والمضمون، إن الشخصية تنقل لنا حيوات أشخاص يبدون ماثلين أمامنا، ويتجسد عالم قوامه أشخاص يشعرون المتلقي بالواقعية والوجود الفعلي في ذلك العالم المشيد. لتصبح الشخصيات أهم هدف يسعى المبدع إلى تحقيقه، من خلال إجادة بنائها ووصفها، إذ من خلالها نكتشف الحياة البشرية جميعها، لأن "الغاية الأساسية من إبداع الشخصيات الروائية هي أن تمكننا من فهم البشر ومعايشتهم"[٢].

ولقد كان الاهتمام بالشخصية قديم قدم أرسطو؛ حيث ارتبطت الشخصية بالحدث، والحدث بالشخصية، وأصبحت "الأحداث هي المتحكمة في رسم صورة الشخصية وإعطائها أبعادها الضرورية والمحتملة"[٣]، وقد راعت الرواية هذا الارتباط بين الحدث والشخصية؛ فحاول المبدعون خلق حالة من الانسجام والتعالق الطبيعي بينهما، بأن تكون هذه العلاقة مقنعة ومترابطة أمام المتلقي في ذات الوقت، وهذا يتحقق بأن "تكون أسباب الحوادث صادرة عن الصفات الشخصية للأشخاص أنفسهم، أما الطريق الخاطئة فهي أن نعني بكل واحد وحده من غير أن نجعل كلاً منهما يعتمد اعتمادًا منطقيًا على الآخر. والروائي يجب أن يعنى بالدوافع، وأن يقدم تفاصيل مرضية عن أسباب الحوادث المتفرقة، وأن يقنع المتلقي بأن أشخاص روايته يتصرفون تصرفًا طبيعيًا ملائمًا للوقائع الناتجة، وأنهم يتخذون اتجاهًا معينًا في التصرف مناسبًا لشخصياتهم"[٤].

وإذاً فالشخصية في الأساس هي التقنية الروائية التي تحمل عبء قيام الحكاية جميعها، لأنها "المركز الذي تدور حوله الأحداث، فالشخصية من جهة أولى – وبغض النظر عن الاسم الذي نسميه بها (درامية – شخصية – عامل) – تشكل مخططًا ضروريًا للوصف، ويمكننا أن نقول إنه ليس قصة واحدة في العالم من غير شخصيات"[٥]. إن الشخصية وفق التصور السابق تساوي القصة، فبدونها لا يطلق على هذه العملية حكاية / قصة، لأن الشخصية "هي من تنتج الحدث وتدفعه وتبنيه، وبدون الشخصية لا يستطيع المرء أن يتصور إمكانية أن تكتب قصة جيدة، لأنها في الواقع ستفتقد عنصرًا جوهريًا"[٦].

وتأتي الشخصية في أي عمل روائي استجابة لأهداف يبتغيها المبدع، ومن خلال أهدافه تلك يشيد عالمه المتخيل على أكتاف شخصياته – فكرها وسلوكها وأقوالها، ومن ثم فإن المبدع يرسم هذه

---

٢ – روجر ب. هينكل: قراءة الرواية، ت (صلاح رزق)، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٥، ص١٧٧.

٣ – حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٠، ص٢٠٨.

٤ – أحمد أمين: النقد الأدبي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٣، ص١١٥.

٥ – رولان بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ت (منذر عياشي)، مركز الإنماء الحضاري، حلب ١٩٩٣، ص٦٣.

٦ – فؤاد قنديل: فن كتابة القصة، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٢، ص٢١٣.

الشخصيات وفق حالة من التخييل، ليُنتج مفارقة بين الشخصيات الواقعية التي يراها المتلقي أمامه وهذه الشخصيات المرسومة وفق حالة الخيال الذهني. وتصبح الشخصية الروائية عندئذ "محض خيال يبدعه المؤلف، لغاية فنية محددة يسعى إليها، وتؤدي القراءة الساذجة إلى سوء التأويل وذلك حين تخلط بين الشخصيات التخييلية والأشخاص الأحياء، أو تطابق بينهما"(٧).

فعلى المتلقي أن يبذل جهده ليفسر ويفهم هذه الشخصيات الروائية المبتكرة، ويربطها بمثيلاتها في الحياة الواقعية المعاشة، ويقيم هذه المشابهة عن طريق ملكة التخيل ويتتبع أوجه التشابه المحتملة، فالقارئ "نفسه يستطيع أن يتدخل برصيده الثقافي وتصوراته القبلية ليقدم صورة مغايرة عما يراه الآخرون عن الشخصية الحكائية"(٨)، وبذلك يقدر المتلقي من خلال تصوره الخاص أن يعالج هذه الشخصيات "في إطار ما ينشئه لها من نظم، ثم يربطها بمستويات من الدلالة متباينة"(٩).

ولأهمية عنصر الشخصية في عملية القصّ تعددت الرؤى والمنظورات التي تناولت الشخصية في الأعمال الإبداعية، فهناك أصحاب المدرسة التقليدية؛ الذين يرون الشخصية على أنها مجرد صورة من صور الحياة، وهناك المنطلقون من أساس اجتماعي فيعدون الشخصية انعكاسًا لما في المجتمع من أنماط الشخصيات المختلفة. وهناك الاتجاه البنيوي الذين يعد الشخصية الروائية مجرد كائنات ورقية ذات أبعاد دلالية، وهناك أيضًا الاتجاه الرمزي والنفسي الذين جعلوا من الشخصية مرآة تعكس ما في الداخل، والحق أن الشخصية "تتعدد بتعدد الأهواء والمذاهب والأيدولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية، التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها حدود"(١٠).

ويظهر في عملية رسم الشخصية ووصفها جانبان: جانب الواقعية وجانب التخييل، ويتفاعل الجانبان وفق ديناميكية تضفي الحياة والتجانس بين هذين الجانبين؛ فلولا الجانب التخييلي ما قربت صورة الواقعي، والذي هو من جهة أخرى يعد انعكاسًا لهذا العالم المتخيل المُشيد. فعملية التخييل في رسم الشخصيات لا بد أن تكون مقبولة وفي حدود الوعي البشري ويدركه، ليصبح الواقعي مع المتخيل جانبين لصورة شخصية واحدة متكاملة ومتجانسة من خلال "وجود مغاير يمثل تركيبات غير واقعية فيزيقيًا، ولكنها بالنظر إلى أسسها وعناصرها الفيزيقية ممكنة ومحتملة"(١١).

---

٧ – حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢٢٣.

٨ – حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩١، ص٥٠.

٩ – الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب، تونس ١٩٩٤، ص١٠١.

١٠ – عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة، رقم السلسلة ٢٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٨، ص٨٣.

١١ – مجموعة كتاب: الرواية العربية واقع وآفاق، ط١، دار ابن رشد للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨١، ص٨٥.

وسوف تنطلق الدراسة من هذه النقطة البحثية، حيث يمثل التدقيق في العلاقة بين الواقعي والمتخيل في رسم الشخصيات عنصر الأساس فيها، إذا يحدث كثيرًا أن تقدم الأعمال الإبداعية واقعًا اجتماعيًا أو تاريخيًا أو سياسيًا ممزوجًا بمتخيلٍ فني، وعندئذٍ تعكس الشخصية – باعتبارها عنصرًا من عناصر العمل – هذين الوجهين بشكل جلي. فالحديث عن الجانب التخييلي في الشخصية يؤدي إلى تتبعها على أرض الواقع ومحاولة تفسير دلالة هذه الشخصيات في الحياة المعاشة، لأن "الكلام عن المتخيل في الأدب يفضي إلى الكلام عن الواقع الذي أُنتج فيه، لأن النص رغم خصوصيته والفردية الذاتية فيه؛ فهو في الغالب الأعم إنتاج مجتمع معين ووليد ظرف حضاري محدد، يتقاطع في أماكن عديدة مع هذا المحيط ويتفاعل معه"(١٢).

سيتناول البحث كتاب (على هامش السيرة)، ويحاول تبين طريقة طه حسين في رسم شخصياته ومنهجه في ذلك. فشخصيات هذا الكتاب هي شخصيات واقعية في الأساس، ولكن المبدع كان له رؤية فنية مميزة أخرى في وصفها وتقديمها، فقد رسمها بشكل يمكن أن يقترب أو يبتعد عن حقيقتها الواقعية التي كانت عليه، فقد زاوج طه حسين في أسلوبه بين الاعتماد على الواقع الذي وردت شذرات منه في ترجمة هذه الشخصيات في كتب السير والتاريخ، والاعتماد كذلك على عملية التخييل الفني، وساعده في ذلك إدراكه ووعيه بوجود علاقة بينهما، فالمتخيل "مرتبط بشكل حميم بالعقل والمعرفة، الأمر الذي يعني أنه لا توجد معرفة تخييلية صرفة، لأن كل معرفة هي معرفة عقلية في بنيتها أو طبيعتها، وما المتخيل إلا وسيلة لتفعيل وتحقيق تلك الماهية"(١٣).

لقد ضرب طه حسين• بأسهم وافرة في مجالات عديدة، فكرية وثقافية وأدبية ونقدية، ونحن سنتوقف في هذا البحث أمام تناوله للسيرة النبوية وبعض الأحداث التاريخية من أيام العرب، ليس توقف المستوثق

---

١٢ – حسين خمري: فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، ط١، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠١، ص٤٢.

١٣ – آمنة بلعلي: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، ط٢، دار الأمل، تيزي وزو – الجزائر ٢٠١١، ص١٩.

• هو طه حسين علي بن سلامة (١٨٨٩ – ١٩٧٣)، وشهرته طه حسين؛ أديب وناقد مصري، لقب بعميد الأدب العربي؛ من أبرز الشخصيات في الحياة الأدبية والفكرية الحديثة في مصر والوطن العربي. وما تزال أفكاره محط اهتمام وجدل حتى الآن، أصيب بالعمى صغيرًا، والتحق بالكُتاب ليبدأ رحلة تعليمه، ثم درس في مطلع حياته بالأزهر، ثم التحق بالجامعة الأهلية حين افتتحت عام ١٩٠٨م، وحصل منها على الدكتوراه عن أبي العلاء المعري في عام ١٩١٤م. وابتعث إلى فرنسا ليكمل دراسته ويحصل على الدكتوراه كذلك عن الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون عام ١٩١٨م. ويعود بعد ذلك إلى مصر ليعمل أستاذًا للتاريخ ثم أستاذًا للغة العربية في كلية الآداب. وشغل منصب عميد كلية الآداب، ثم مديرًا لجامعة الإسكندرية، وأخيرًا وزيرًا للمعارف.

وشغل العديد من المناصب، فقد كان رئيسًا لمجمع اللغة العربية، وعضوًا في العديد من المجامع الدولية، وعضوًا كذلك في المجلس العالي للفنون والآداب. وقد نالت أفكاره وكتبه الكثير من الشهرة والذيوع؛ والنقد. إذ كان لأفكاره

من هذه الأحداث – فهذا مجال البحث التاريخي، بل نتوقف أمام طريقته الفنية لتقديم لهذه الأحداث من خلال الشخصيات المختلفة، التي أعمل فيها قلمه وخيالة فأبدع في رسم صور مغايرة لهذه الشخصيات. ليتضافر الواقع التراثي مع المتخيل الحكائي في تكوين صورة قد تتوافق أو تتصادم مع ما استقر في أذهاننا عن هذه الشخصيات التاريخية.

ولم يكن فعل طه حسين بدعًا عن ما يقوم به المبدعون والأدباء، لأنهم جميعًا يقيمون "عالمًا متخيلاً من الحوادث تكون إما حقيقية؛ أو من خيال الراوي، ينقلها إلى المتلقي بواسطة لغة فنية أدبية لا تستعير مكونات الواقع الخارجي، إنها تعبر عن وعي ومعان ومدلولات ونظم فكرية شاملة، تقوم بخلق عوالم جديدة من تعالق الدلالات اللغوية بعضها ببعض، ويقوم القارئ أو الناقد بكشف تلك العوالم الجديدة حال الانتهاء من قراءة النص، أو في أثناء عملية القراءة، وهي موجودة في ذهن القارئ، والكاتب دوره توضيح العالم التخيل في ذهن المتلقي، والألفاظ هي من تساعده على إنشاء مدينة التخييل"(١٤).

يحاول البحث من خلال تتبع شخصيات كتاب (على هامش السيرة) التوصل إلى الرابط أو العلاقة بين الجانب الواقعي والجانب التخييلي كما رسمها المؤلف، ليجيب البحث عن تساؤل مهم؛ هو: هل استطاع طه حسين التحوير في الشخصيات التاريخية ليُكون منها شخصيات متخيلة قادرة على إيصال أهدافه؟ لقد قدم طه حسين العديد من الشخصيات التاريخية (الواقعية)؛ وحاول قدر الإمكان جعل واقعيتها ووجودها المثبت ممزوجًا بنكهة تخيلية، لأن الأساس في العالم السردي المشيد هو أن الشخصية "ليس لها وجود واقعي، بقدر ماهي مفهوم تخييلي حامل لدلالات وغايات محددة"(١٥).

الكثير من المعارضين الذين وجهوا سهام نقدهم لأفكاره وأعماله، وما زالت هذه الاتجاهات النقدية تجد صدى حتى اليوم. ومن أشهر كتبه التي أثارت موجات من المعارضة (مستقبل الثقافة في مصر – في الشعر الجاهلي – على هامش السيرة).

ومثّل طه حسين مصر في مؤتمر الحضارة المسيحية الإسلامية بإيطاليا عام ١٩٦٠م، ورشحته الحكومة المصرية لجائزة نوبل، ومُنح الدكتوراه الفخرية من جامعتي الجزائر وباليرمو بإيطاليا عام ١٩٦٥م. وتقلد وسام قلادة النيل في العام ذاته. وقد كثرت أعماله وشملت مجالات كثيرة، فمنها الفكري (الشيخان – الفتنة الكبرى – حديث المساء – غرابيل – مرآة الإسلام)، ومنا النقدي (مع أبي العلاء في سجنه – تجديد ذكرى أبي العلاء – من لغو الصيف – من أدبنا المعاصر – مع المتنبي – حديث الأربعاء – حافظ وشوقي)، ومنها الإبداعي (دعاء الكروان – أديب – المعذبون في الأرض – شجرة البؤس – الوعد الحق – الأيام – الحب الضائع – جنة الشوك).

انظر: قاموس الأدب العربي الحديث، لحمدي السكوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٥، ص ص ٤١٠ – ٤١٣

١٤ – ينظر: عبدالله إبراهيم: المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٠، ص٩.

١٥ – أحمد رحيم كريم خفاجي: المصطلح السردي في النقد الدبي العربي الحديث، ط١، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٢، ص٣٨٣.

إن رسم الشخصيات ووصفها، وتكوين ملامح بنيتها في عوالم طه حسين السردية تبدو مقلوبة نوعًا ما، وذلك عما يمكن أن نراه عند المبدعين والأدباء الآخرين عندما يقيمون عوالمهم التخيلية في نصوصهم، فبينما نرى هؤلاء المبدعين يعتمدون على الشخصية في "بناء عوالمها التخيلية مع الإيهام بواقعيتها، وبرسم الشخصية رسمًا دقيقًا"[١٦]، ليصل المبدع بالمتلقي إلى حالة من عدم الفصل بين الحقيقة الواقعة والصورة الذهنية المتخيلة لهذا العالم وتلك الشخصيات. فإننا نرى عند طه حسين سعيًا حثيثًا لتحويل الشخصيات الواقعية إلى شخصيات تحمل طابعًا تخييليًا، وهو بذلك قد اختط أسلوبًا جديدًا في السرد الذي ينطلق من التخييل إلى الواقع، إذ ينطلق طه حسين من الواقع إلى التخييل. بادئًا من الواقع ليصل إلى عملية التخييل وتحديدًا فيما يخص عنصر الشخصيات.

وقد سلك طه حسين في سبيل جعل شخصياته ذات صبغة تخييلية سبلاً كثيرة، ولكن الملاحظ هو اعتماده على النزر اليسير من أوصاف تلك الشخصيات، والتي وردت في كتب التاريخ والسير، آخذًا هذا الأوصاف القليلة – والنادرة أحيانًا – ليبني منها أفعال هذه الشخصيات وأقوالها، وينقل لنا دواخلها النفسية قدر استطاعته. وقد اتبع في تقديم هذه الشخصيات طرائق مختلفة، كشأن باقي الكُتاب الذين رسم بعضهم "شخصياته بأدق تفاصيلها، ومنهم من حجب عن الشخصية كل وصف مظهري، وآخرون قدموا الشخصيات عن طريق الوصف الذاتي؛ الذي يقدم البطل نفسه كما في الاعترافات. وآخرون قدموها تقديمًا مباشرًا، تاركين للقارئ أمر استخلاص النتائج والتعليق على الشخصية، وذلك من خلال الأحداث التي تشارك فيها، أو من خلال الطريقة التي تنظر بها تلك الشخصية إلى الآخرين"[١٧].

وقد استفاد البحث من بعض الدراسات والمقالات السابقة، وهناك دراسات قليلة تناولت زاوية أو جانبًا واحدًا من كتاب (على هامش السيرة)، وتوجد كذلك مقالات كتبت عن نماذج الشخصيات عند طه حسين، ولكن دراسة واحدة لم تبحث العلاقة بين الشخصيات التي صاغها طه حسين بأسلوبه الأدبي وكونها ذهنه بشكل تخييلي؛ وصلتها بالواقع الذي نبتت فيه وعاشت في رحابه، ومدى قرب هذه الشخصيات أو بعدها بشكلها الجديد من حقيقتها التاريخية الواقعية، الذي اعتمد عليه طه حسين في تشكيلها.

فمن الدراسات السابقة ذات الصلة بهذا البحث:

١. نماذج الشخصية في رواية طه حسين، مقال لعبدالله الخطيب، مجلة أفكار، ٢٤٧ع، الأردن ٢٠٠٩، ص ص ٧٢ – ٧٤.

أشار المقال إلى اهتمام طه حسين في رواياته بالطبقة الكادحة؛ وانشغل بهمومها وعمل على بيان معاناتها، وأنه أبرز في رواياته عدة نماذج لشخصيات رآها في المجتمع؛ وحاول تسليط الضوء على ما

---

١٦ – محمد معتصم: مكون الشخصية الروائية (من السند التاريخي إلى هلاميات وادي السيليكون)، ط١، دار التنوير، الجزائر ٢٠١٤، ص٧.

١٧ – حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢٢٣.

تقاسيه من بؤس وشقاء. ومن هذه النماذج التي تناولها المقال نموذج شخصية المرأة المقهورة، وتناول الكاتب هذا النموذج من خلال شخصية (آمنة) في رواية دعاء الكروان فبين الإطار النفسي لهذه الشخصية، وكذلك نهاية المسار الحياتي لها. وتناول المقال كذلك – بصورة أوجز – شخصية (نفيسة) في رواية شجرة البؤس كمثال للمرأة المقهورة. وأشار المقال في فقرتين متتاليتين إلى نموذجين للمرأة كما وردا في رواية دعاء الكروان، وهما: المرأة المرابية العاهرة، والمرأة الساحرة (العرافة) دون تفصيل.

٢. تأملات في رواية "على هامش السيرة" لطه حسين، لعلي بن محمد بن حسن العطيف، مجلة فكر، ٢٠ع، مركز العبيكان للأبحاث والنشر، الرياض – أكتوبر ٢٠١٧، ص ص ٩٦ – ٩٩.

تناول هذا المقال في صفحاته الثلاث الجزء الثالث من كتاب "على هامش السيرة"، وذلك ببيان سبع شخصيات وردت في هذا الجزء، وهم (أبو جهل – نسطاس الرومي – حمزة بن عبد المطلب – جعفر بن أبي طالب – عداس – وحشي – حنظلة بن عامر)، وركز الكاتب على فحص وتدقيق الأخبار الواردة عن هذه الشخصيات في كتاب "على هامش السيرة" وبيان مدى صحتها من عدمها، ولم يتوقف المقال أمام الوصف الفني للشخصيات، كما بناها وأقامها طه حسين. وبشكل عام فإن المقال يعرض لقضية جدلية حول الكتاب، هي: مدى مصداقية المرويات والأحداث والشخصيات التي قُدمت في كتاب "على هامش السيرة"، وكيف أن طه حسين اصطنع بعض الشخصيات الوهمية ليقدم الأحداث التاريخية من وجهة نظره من خلالها.

٣. الكتابة التاريخية عند طه حسين – على هامش السيرة أنموذجًا، لباقر محمد جعفر الكرباسي، مجلة مركز دراسات الكوفة، ٤ع، جامعة الكوفة – العراق ٢٠١١، ص ص ٤٢٧ – ٤٣٥.

قدم البحث تمهيدًا عن حياة طه حسين، وبيان منهجه ودوره المهم في حياة الأدب العربي المعاصر والفكر بشكل عام، ثم سلط البحث الضوء على كتابة التاريخ قديمًا – وبشكلٍ أخص كتابة أيام العرب وتاريخهم قبل الإسلام وبعده، وما يتصل بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين أن المؤرخين القدامى قد اختلط عند بعضهم الصواب والخطأ، وأن عملية التصدي للكتابة في السيرة النبوية وما قبلها من أيام العرب أمر عسير وشاق.

ثم بين البحث ما هدف إليه طه حسين من كتابه "على هامش السيرة"، وأنه قد تناول بعض أيام العرب وكذلك بعض أحداث السيرة من الزاوية الأدبية التي يجيدها، وأنه لم يلتزم التزامًا دقيقًا بتفاصيل الأحداث أو الشخصيات كما وردت في المصادر؛ وكما أقرّ طه حسين بنفسه ذلك. لأن هدفه ليس تاريخيًا أو التوثيق التاريخي، وأوضح البحث كذلك تباعد الأماكن والأزمنة لما تناوله طه حسين من أحداث تاريخية في هذا الكتاب.

٤. الخطاب الواصف للسيرة النبوية "على هامش السيرة" لطه حسين أنموذجًا، لرواء نعاس محمد، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، ٤٣٢ع، كلية الإمارات للعلوم التربوية – الإمارات ٢٠١٨، ص ص ٢٤ – ٣٦.

قدم البحث تمهيدًا بين فيه أهمية السيرة النبوية كخزانة معرفية، وأنها مادة أولية للكثير من النصوص الأدبية والإبداعية، وبين البحث أن طه حسين اتجه إلى السيرة النبوية فسجل ما ارتآه منها؛ وما انطبع في نفسه من أحداثها، وتفرد أسلوبه بالمزاوجة بين أسلوب حكاية الأخبار والسيرة والأسلوب القصصي، فخاض مغامراته السردية مشكلاً منظورًا مختلفًا ومميزًا للعلاقة بين الرواية والتاريخ. وأن طه حسين قد أعاد تأمل الواقع التاريخي ممثلاً في بعض أحداث السيرة، واستنطق أزمنة تاريخية من خلال توظيف الخيال الأدبي، فقدم قراءات جديدة للسيرة النبوية وبنى خطابًا عقليًا جديدًا يتواكب مع التطور الثقافي والفكري الذي تسارعت وتيرته في القرن السابق والحالي.

٥. بنية الشخصية في رواية "دعاء الكروان"، لحنان إبراهيم محمد العمايرة، مجلة دراسات، ٦٤ع، جامعة عمار ثيلجي بالأغواط، الجزائر ٢٠١٨، ص ص ١٦ – ٣١.

تناولت هذه الدراسة بنية الشخصية الروائية في رواية "دعاء الكروان" لطه حسين"، فأوضحت ملامح الشخصيات المكونة لهذه الرواية، ووقفت على مدلولية أسماء هذه الشخصيات كذلك، وكشف البحث عن العلاقات القائمة بين هذه الشخصيات على المستويين الخارجي والداخلي. وختمت الدراسة ببيان وظائف هذه الشخصيات الروائية، وإبراز دورها من خلال تطبيقها على النموذج العاملي.

مقاربة المفاهيم والمنهج

يمكن أن نقدم بين يدي البحث تحديدًا لثلاثة مفاهيم؛ هي: (الشخصية – الواقعية – التخييل)، إذ يشير مصطلح الشخصية personality إلى ما يميز إنسانًا بعينه عن غيره، وقد ورد في المعجم الوسيط أن الشخصية هي "صفات تميز الشخص عن غيره، ويقال فلان ذو شخصية قوية؛ أي ذو صفات مميزة وإرادة وكيان مستقل"[١٨]، أما معجم (المصطلحات العربية في اللغة والأدب) فيعرفها بأنها "التي تقوم بتحريك وتطوير الأحداث في الرواية، وهي أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية"[١٩].

أما معجم المصطلحات الأدبية فيقول إن الشخصية هي "مجموع الصفات الخلقية والجسمية والمعايير والمبادئ الأخلاقية، ولها في الأدب معاني نوعية أخرى، وعلى الأخص ما يتعلق بشخص تمثله

---

١٨ – إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إسطنبول – تركيا ١٩٧٢، ص٤٧٥.

١٩ – مجدي وهبة – كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص٢٠٨.

رواية أو قصة"[٢٠]، ووفقًا للتعريفات السابقة فإن الشخصية هي مجموعة صفات فزيولوجية وسيكولوجية تميز شخصًا عن آخر، أو مجموعة أفعال وأقوال وسلوكيات خاصة بشخص ما في سياق الأحداث. وبشكل عام فإن كلمة الشخصية personality مشتقة من الكلمة اليونانية persona وتعني القناع أو الوجه المستعار الذي كان الممثلون يضعونه على وجوههم تنكرًا لئلا يعرفهم الآخرون، ويقدمون من وراءه ما يراد منهم من أدوار على المسرح وأمام الناس.[٢١]

وقد تطور مفهوم الشخصية وتعدد لدى نقاد كثيرين في الغرب، فمنهم رولان بارت الذي يرى الشخصية "نتاج عمل تأليفي وكان يقصد أن هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى اسم (علم) يتكرر ظهوره في الحكي"[٢٢]. وإلى هذا المفهوم مال تيزفتان تودوروف وأكد عليه، بينما ربط هنري برجسون بين الشخصيات المتخيلة والمُخلقة في النص المبدع وبين الكاتب نفسه؛ مقررًا أن هناك إسقاطًا من المؤلف على الشخوص، وقد ربط غريماس مفهوم الشخصية بمفهوم العامل حيث يرى أن الشخصية هي مجموع العوامل التي تبقى ثابتة وفق منظومة معينة، أما رؤية فيليب هامون للشخصية فتنطلق من منظور لساني نحوي قائم على ثنائية الدال والمدلول.

ويمكن أن نخلص إلى تحديد للشخصية الروائية؛ بأنها "ليست كائنات حقيقية، بل هي كائنات من ورق"[٢٣]، فهي إذاً "تشبه الأناس الحقيقيين، ولكنها لا تشبههم كذلك"[٢٤]، لأنها نتاج ومحصلة فكر الكاتب وخياله. فتمتزج الشخصية الروائية "في وصفها بالخيال الفني للروائي وبمخزونه الثقافي، الذي يسمح له أن يضيف ويحذف ويبالغ ويضخم في تكوينها وتصويرها، بشكل يستحيل معه أن تعتبر تلك الشخصية الورقية مرآة أو صورة حقيقية لشخصية معينة في الواقع الإنساني المحيط، لأنها شخصية من اختراع الروائي فحسب"[٢٥].

وتصبح الشخصية بهذا المفهوم تقنية فنية، على المبدع أن يتقنها ويتفنن في خلق الوعي بها والإقناع بها، فهي ليست مجرد نقل وعرض أو انعكاس لواقع معين؛ أو توثيق دقيق لحقائق مجردة، بل هي تقنية فنية "تسهم في فهم الشخصية الروائية من خلال أقوالها وأفعالها، مع مراعاة أن فهم هذه الشخصيات يمكن أن يتعدد بتعدد القراء، ومستويات قراءاتهم واختلاف تحليلاتهم"[٢٦]. وقد اجتمع عدد لا بأس به من النقاد

---

٢٠ – إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس – تونس ١٩٨٨، ص١٩٥.

٢١ – ينظر: رمضان محمد القذافي: الشخصية نظرياتها وأساليب قياسها، المكتب الجامعي، الإسكندرية ٢٠٠١، ص٩.

٢٢ – حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص٥١.

٢٣ – رولان بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ت (منذر عياشي)، مرجع سابق، ص٧٢.

٢٤ – روبرت شولز: عناصر القصة، ت (محمود منقذ الهاشمي)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ١٩٨٨، ص٢٣.

٢٥ – آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ١٩٩٧، ص٢٦.

٢٦ – محمد عزام: البطل الروائي، مجلة الموقف الأدبي، ٣٤٦ع، دمشق ٢٠٠٠، ص٤٧٠.

على تعريف محدد للشخصية، حيث يرون الشخصية "كائن ورقي ينشأ إنشاءً، وهو كائن حي بالمعنى الفني لكنه بلا أحشاء، أو هو كائن قدَّ من سمات وعلامات وإشارات يمكن منها إنشاء خطاب ما، فالشخصية إذاً من عالم الأدب أو الفن أو الخيال وهي لا تنتسب إلا إلى عالمها ذاك"(٢٧).

أما مصطلح الواقعي / الواقعية Realism، فقد أشارت موسوعة المصطلح النقدي إليه بأنه "ذلك الجهد؛ وذلك الميل المقصود من الفن لتقريب الواقع"(٢٨)، ومن معاني الوقوع حصول الأمر وثبوته، فالواقع يدل في معناه على عالمنا الحقيقي وما يحدث فيه. وبذا يصبح الواقع هو "الوجود الإنساني بأطره المكانية والثقافية والتاريخية؛ والاقتصادية والسياسية؛ والتكنولوجية كافة"(٢٩)، أي أن كل العوامل المكانية والزمانية ... إلخ؛ تشكل في محصلتها الواقع الإنساني ومظهر وجوده. ولا شك في أن هذا الواقع "يؤثر ويتأثر به الإنسان وما هو إلا تعبير عن ذاته واشيائه، في أوساط جماعة يحمل من خلالها كلامًا، ليتحول بدوره إلى الكتابة للتعبير عن هذا الواقع"(٣٠).

فالمبدع يستلهم ما يدور في واقعه، ويأخذ من الماضي أو الحاضر أحداثًا وقعت، أو شخصيات عاشت فيصوغ ذلك كله بأسلوبه الفني، وخياله المتقد، ليؤثر في المتلقي الذي يحس ويشعر بهذا الواقع ويراه، إن الروائي الناجح عندئذٍ "لا يكون عبدًا أو أسيرًا في نقل الواقع، بل يُخضع معلومات واقعه لفنه الراقي"(٣١). إن مفهوم الواقعي في الرواية لا يرتبط بالواقع البحت، إنما هو ممزوج في الوقت ذاته بالصورة الفنية التي يُقيمها الأديب، ليصبح الروائي في هذه الحالة "كالمؤرخ ينتظر قراءً لروايته ليطلعوا فيها على حياة الآخرين، وليتعرفوا بعمق على عصرهم ومشاكلهم، لأنهم يرون فيه صورة عن حياتهم"(٣٢).

وثمة جانب آخر من المهم توضيحه في مفهوم الواقعي، وهو أن الواقعية في الأدب ليست انعكاسًا آليًا للواقع الحياتي، بل هي "انعكاس للواقع على أساس رفض المحاكاة فيه، ومفهوم الانعكاس ليس مجرد حصيلة انعكاس الواقع كما هو في الظاهر، وإنما هو الواقع بما يخلفه من آثار على نفس الكاتب"(٣٣). فالواقعي إذاً تصوير للواقع بينما الواقع هو تعبير عن المجتمع وما يتركه من أثر على نفس المبدع، فهو

---

٢٧ – الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص٩٨.

٢٨ – ديمين كرانت: موسوعة المصطلح النقدي (الواقعية – الرومانسية – الدراما والحبكة)، ت (عبدالواحد لؤلؤة)، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، مج٣، ، ص٤٢.

٢٩ – رفيف رضا صيداوي: الرواية العربية بين الواقع والتخييل، ط١، دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٨، ص٧٢.

٣٠ – أحمد مرشد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ط١، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ٢٠٠٥، ص٩٩.

٣١ – محبة حاج معتوق: أثر الرواية الغربية في الرواية العربية الحديثة، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٤، ص١٥.

٣٢ – المرجع السابق: ص١٦.

٣٣ – حلمي بدير: الاتجاه الواقعي في الرواية العربية الحديثة في مصر، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٢، ص١٢.

"يستمد مادته الأولية من واقع الحياة من حوله، وهذا الواقع يتحول في الإبداع الأدبي إلى واقع متميز عن الواقع الأصلي، ذلك أن الأديب لا يقصد إلى تصوير الواقع كما هو في الحقيقة تصويرًا آليًا، ولكنه يقصد إلى خلق الواقع الفني من خلال الواقع الطبيعي"(٣٤).

وعن مصطلح التخييل Fiction؛ فهو مصطلح ذو دلالات متشابكة مع (الخيال – المتخيل)، وقد ورد في معجم السرديات أن "ما وضع من حدود للخيال وما اشتق منه من مصطلحات؛ يتفق في أن المُخيّل من الأشياء في الكلام يقتضي الإيهام بها، كما يقتضي التفنن في تقديمها وإبداعها إبداعًا قد يخرج بالمُخيّل من نطاق المحتمل على نطاق الممتع المخادع للعقل""(٣٥).

وعملية التخييل هي الأساس في إنشاء وإقامة عالم الرواية المبتكر، لأن الروائي يقيم عالمًا مقابلاً لعالمنا المحسوس من خلال خياله، ويصف الروائي "من خلال مزاجه ما رآه، ولا يأخذ آليًا إنما يأخذ النواة، والخيال قوة عقلية تصنع صورًا تتخطى الواقع المعيش ... ويمثل الخيال دورًا كبيرًا في ابتكار أجواء الرواية كالأمكنة والبيوت والطرقات لمنحها ميزات عصر معين، فيجعل منها أمكنة موجودة تعطينا فكرة عن انطباعات الحياة، رغم أن العصر الذي ابتكره الروائي ما هو إلا إطار لا يفارق خيال الكاتب، ولكنه يجتهد مستعينًا بقدرته الفنية لتكملته"(٣٦).

وقد اشتقت كلمة الخيال imagination من الكلمة اللاتينية imaginative وتدل على ما يرى في الحلم والهلوسة، ثم انتقلت الدلالة وتطورت لتدل على ملكة الخلق عن طريق تركيب الأفكار وما يتعلق بالذهن. أي أن الخيال كعملية – يقوم بإيجاد علاقة بين الطبيعة والواقع من جهة والعمل الفني من جهة أخرى؛ عن طريق تخليق مدركات حسية لا وجود لها على أرض الواقع ولكن يمكن تخيلها وتصورها، ويرتبط التخييل بالخيال في أنهما يقومان بابتكار أشياء متخيلة وغير حقيقية على أرض الواقع، وبذا يؤدي التخييل كذلك معنى "الخلق والابتكار لأشياء متخيلة، وتستعمل هذه اللفظة حاليًا في تركيبات كثيرة، وخاصة في الجنس الأدبي والسينمائي القائم على الخيال الاستقبالي، كما هو الأمر بالنسبة إلى الخيال العلمي والسياسي"(٣٧)، ولهذا المعنى أشار الدكتور جابر عصفور حين قرر أن المتخيل هو "عملية إيهام

---

٣٤ – شايف عكاشة: نظرية الأدب في النقديين الجمالي والبنيوي في الوطن العربي – نظرية الخلق اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٤، ص٣٢.

٣٥ – محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس ٢٠١٠، ص ٧٤.

–٣٦ محبة حاج معتوق: أثر الرواية الغربية في الرواية العربية الحديثة، مرجع سابق، ص ص ٢٤ + ٢٥.

٣٧ – يوسف الإدريسي: الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ط١، منشورات الملتقى، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء ٢٠٠٥، ص٢٩.

موجهة تهدف إلى إثارة المتلقي ... تتم على مستوى اللاوعي من المتلقي بين الخبرات المختزنة والصور المتخيلة، فتحدث الإثارة المقصودة ويلج المتلقي إلى عالم الإيهام"(٣٨).

وينافس المتخيل الواقع ولا يشبهه، لتقوم علاقة تفاعلية بينهما، وهذه "العلاقة الداخلية بين الواقع والمتخيل تشكل أساس الأديب"(٣٩)، وهي علاقة تكاملية لا غنى لطرف منها عن الآخر، لأن "المتخيل بناء ذهني، أي أنه إنتاج فكري بالدرجة الأولى أي ليس إنتاجًا ماديًا، في حين أن الواقع هو معطى حقيقي وموضوعي، فالمتخيل يحيل إلى الواقع، والواقع يحيل إلى ذاته"(٤٠)، إن الواقع هو معطى حضوري يمكن إدراكه والإحساس به؛ وتلمس آثاره، أما المتخيل فهو مشيد ذهنيًا، بناء خفي يمكن إدراكه بالفكر وليس بأي شيء آخر، ويصبح المتخيل "بقدر ما يبدو في علاقة تعارض مع الواقع والتاريخ بقدر ما ينهل منهما عملياته، وكل عملية من عملياته هي في نهاية الأمر تعبر عن رؤية خاصة للتاريخ والواقع"(٤١).

وتقيم شخصيات كتاب (على هامش السيرة) جدلاً سرديًا بين الواقعي والخيالي، بوصفها شخصيات تاريخية مثبتة ومعروفة، ولكن طريقة تقديم طه حسين لها جعلت منها شيئًا مختلفًا؛ يمكن التعاطف معها أو النفور منها، وقد يبدو أن ثمة تضادًا بين الواقعي والتخييلي في تناول طه حسين لهذه الشخصيات؛ وأصل التضاد ما يمثله الواقع التاريخي من مادية محسوسة جامدة، وما يمثله العالم التخييلي – الذي ليس له ثمة وجود على أرض الواقع وهو خاضع لتشكيل المبدع، وهو هنا أسلوب طه حسين وطريقته الفنية في التشكيل الخاصة به والمميزة له.

ولكن هذا التضاد يزول بين الواقعي والتخييلي في بناء هذه الشخصيات حين نرى الواقع يحيل إلى ذاته والتخييلي يحيل إلى ذلك الواقع؛ وبذا يتحد أصل الشخصيات ومصدرها، ويصبح مناط التفريق بينهما هو ذلك النص الإبداعي الذي يمثل حالة تجربة جديدة للمبدع، ويبني عالمًا متخيلاً يشبه في بعض جوانبه الواقع في محاولة منه لإقناع المتلقي بواقعيته المفترضة، لأن كل "ما تتضمنه الرواية لا يعكس الواقع حتى وإن كانت هناك إشارات دالة عليه، لأن كل شيء يقدم على أنه تخييل"(٤٢).

ويستند طه حسين في تقديم شخوص كتابه على مستند من الحقيقة التاريخية، ولكنه يضيف لمسته الفنية والجمالية النابعة من التخييل، ليقنعنا بوجهة نظره في الأحداث بعد تحوير كبير أو صغير في صانعيها، وإضافة أو حذف ما يعنُّ له من صفات وسلوكيات وأفكار خاصة بهم، ويمكن القول أن طه

---

٣٨ – جابر عصفور: مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)، المركز العربي للثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٨٢، ص ص٢٩٦ + ٢٩٧.

٣٩ – ديمين كرانت: موسوعة المصطلح النقدي (الواقعية – الرومانسية – الدراما والحبكة)، مرجع سابق، ص٤١.

٤٠ – حسين خمري: فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، مرجع سابق، ص٤٤.

٤١ – آمنة بلعلي: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، مرجع سابق، ص٥٥.

٤٢ – سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة، ط١، الدار العربية للعلوم – ناشرون، بيروت ٢١٢، ص١٦٥.

حسين في كتابه (على هامش السيرة) سيعتمد خلفيتين بارزتين في إقناع المتلقي: أولهما الخلفية التاريخية التي يمكن لأي أحد أن يرجع إليها ويستوثق من صحة ما قدمه من عدمه، والخلفية الثانية هي المخيلة الواسعة له، والتي لن تكون محض نقل للواقع أو انعكاس بحت له، بل هي متصلة بمدى تخيله للأحداث وسرده لها بطرقة فنية مميزة، وهو بذلك "يمزج الحقيقي بالمتخيل، خالطًا بين ما هو داخل النص وخارجه"(٤٣).

وسوف يعتمد البحث في تتبع شخصيات كتاب (على هامش السيرة) وبيان موقعها الأدبي بين الواقعي والتخييلي على منهجين لا غنى عنهما: أولهما المنهج الوصفي التحليلي، حيث يتتبع الباحث صفات الشخصية كما وردت في النص الأدبي، ويبدأ في تحليلها وتفسيرها تفسيرًا دلاليًا، ثم يقوم الباحث بعملية استنتاج وتركيب الجزيئات التي توضح الملامح العامة لكل شخصية على حدة، وفي نهاية الأمر استخلاص الشكل العام الذي بنى من خلاله طه حسين شخصيات كتابه.

والمنهج الثاني سيكون المنهج التاريخي، إذ من المهم الرجوع إلى المصادر التاريخية التي اعتمدها الكاتب واستند عليها في بناء شخصياته؛ واستلهم منها أصلها الواقعي التاريخي.

وبذا يصبح من اليسير إقامة مقارنة بين ما هو واقعي وما هو متخيل في ملامح هذه الشخصيات وتكوينها، على أنه من الأهمية بمكان أن ننوه إلى أن المنهج التاريخي لن يكون هو الأساس في هذه الدراسة، إذ ليس من مقتضيات هذا البحث ولا من أهدافه عملية التوثيق؛ أو إجراء تدقيق تاريخي لبيان صدق أو كذب الأحداث والشخصيات الواردة في النص. ولن يتم التطرق لعملية التوثيق إلا بالقدر الذي يخدم الهدف من الدراسة، المتمثل في تتبع بنية الشخصيات ومقارنة تكوينها التخييلي بوجودها الواقعي الذي أثبتته كتب التاريخ والسير التي أشار لها طه حسين؛ ومثلت مصادره، وتكوين صورة عامة ذات ملامح محددة للشخصيات التي رسمها طه حسين، وتقرير إذا ما كان هذا الوصف الجديد يخدم المنظور الذي يتبناه المؤلف ويبتغي إيصاله.

كتاب (على هامش السيرة)

يعد الأديب طه حسين من جيل المؤسسين للفن القصصي بصفة عامة في مصر والمنطقة العربية، وتحديدًا مع مطلع العقد الثاني من القرن العشرين. وقد ألف كتابه (على هامش السيرة) مبكرًا، فصدر بأجزائه الثلاثة في النصف الأول من القرن الماضي، مبتغيًا من ورائه تزويد المتلقي بثراء معرفي لجوانب لا يعرفها من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك بعض أيام العرب، وبعض الأخبار التاريخية التي سبقت بزوغ الإسلام. وصرح طه حسين بهذا في الكتاب؛ بل في أول فقرة على الإطلاق من المقدمة حين قال: **"هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد**

٤٣ – رفيف رضا صيداوي: الرواية العربية بين الواقع والتخييل، مرجع سابق، ص١٨٠.

بها إلى التاريخ. وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعًا، م لم أرَّ بنشرها بأسًا، ولعلي رأيت في نشرها من الخير؛ فهي ترد على الناس أطرافًا من الأدب القديم قد أفلتت منهم، وامتنعت عليهم فليس يقرؤها اليوم منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم، وإنك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم"(٤٤).

وقد جاءت حكايات طه حسين في ثلاثة أجزاء، وإن كانت جميعها تنتظم في الحديث عن مبشرات النبوة ودلائلها؛ أو ما يتصل بالإيمان برسالة الإسلام أو معادتها من الناس، سواء في ذلك انتظار أهل الكتاب له، ومعرفتهم بصفاته صلى الله عليه وسلم، وتتبعهم لتحركاته، وإثباتهم في غير موقف لهذه النبوة من العلامات التي يعرفونها. أو إيراد طه حسين بعض أيام العرب السابقة لميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، أو تزامنت مع مولده عليه السلام، أو لحقت ميلاده المبارك ثم رافقت بعثته.

وأتى الجزء الأول في أربعة عشر فصلاً تدور في مجملها حول شخصية عبد المطلب بن هاشم، وحفره بئر زمزم وما تبعها من قصة التحكيم، ثم ما كان من نذره ذبح أحد أولاده وافتداء ابنه عبدالله حين وقعت القرعة عليه، ثم زواج عبدالله ابنه من آمنة بنت وهب. وقد قدم بعض الفصول عن أيام العرب قبل الإسلام مثل حديثه عن ملك اليمن تبع الحميري وصولاً إلى حديث أبرهة الأشرم وقصة غزوه بيت الله الحرام وهلاكه بطير الأبابيل. ثم أورد في هذا الجزء أيضًا ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام، وأشار إلى يتمه ورعايته عليه السلام من قبل أمه ثم جده ثم عمه، وحاضنته ومرضعته.

أما الجزء الثاني فيبدو واضحًا أثر الأدب اليوناني فيه، فقد قدم عدة شخصيات ذات أسماء يونانية؛ وأشار إلى آلهة اليونان في أكثر من موضع وكذا أشار إلى بعض من آدابهم وأفكارهم، وقد جاء هذا الجزء في خمسة فصول، ركز فيها طه حسين على شأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مع زوجه خديجة بادئًا بخروجه للتجارة في مالها وعروضها ثم ما كان من أمر زواجه بها، وكذا يُدخل في بؤرة الأحداث ابن عم خديجة ورقة بن نوفل، مسلطًا الضوء على هذه الشخصية الغامضة في التاريخ الإسلامي – مع أهمية ما قام به ورقة في فجر الإسلام ومرحلة بزوغ نجمه. وكان هذا الجزء في أغلب فصوله مخصصًا للحديث عن مبشرات النبوة وإرهاصاتها، والتي كان الباحثون عن الحقيقة يرونها ويتتبعونها، سواء أكانت شخصيات حقيقية مثل بحيرى الراهب أم كانت شخصيات مخترعة روائيًا مثل صاحب الحان أو باخوم الصناع.

وأتى الجزء الأخير في أحد عشر فصلاً، وكانت فصول هذا الجزء أشبه بالقصص المنفصلة التي لا رابط بينها؛ إلا أنها تدور حول صلة صاحب القصة بالنبي صلى الله عله وسلم، وكان الفصل الأطول في هذا الجزء ما خصصه طه حسين لأبي جهل مؤكدًا على العداوة التي أضمرها وأعلنها أبو جهل

٤٤ – طه حسين: على هامش السيرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤، المقدمة ص٧.

للإسلام، وبين كمَّ الحسد والحقد الذي احتوته جوانح هذا الرجل تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، واستفاض في وصف شخصية أبي جهل؛ بشكل يكاد يكون هو الأكبر في الكتاب كله، ثم نراه يتناول شخصيات معينة فيوردها بأوصاف لها دلالات إشارية واضحة. فهو يقدم قصة حمزة بن عبد المطلب ثم يورد قصة قاتله وحشي بن حرب في فصل منفصل، ويقص حكاية جعفر بن أبي طالب وكذلك قصة زيد بن حارثة، ويتوقف أمام أقصوصة هامشية في السيرة لعبد اسمه عداس فيجعل له حكاية وحديثًا. وكذلك يتوقف أمام الفتى الغض مصعب بن عمير أول سفير في الإسلام.

ونلاحظ أن طه حسين لم يورد هذه المواقف والأحداث والقصص في شكل أخبار تاريخية موثقة؛ كما قُرأت أمامه من كتب السير، بل يقدمها على شكل قصص فني، ويختار لكل فصل عنوانًا لافتًا، ويصبح هذا العنوان هو مدار القصة ومناط الهدف منها. وهو بهذا يخط طريقة فنية لم يسبقه إليها أحد من قبل، حيث كسر رتابة المرويات التاريخية والأخبار ليقيم جوًا سرديًا يتعمق من خلاله في دواخل الشخصيات، ويخرج به عن النمط المألوف الذي عهده الناس في تقديم السيرة النبوية أو أخبار التاريخ، وكذا فإن طريقة وصفه وتقديمه لمن قام بهذه الأحداث؛ يجعل المتلقي يتفهم أفعالها ويطمئن لسلوكها الطبيعي، ويرى أن ما حدث كان في سياق طبيعي من هذه الشخصية أو تلك.

كما أنه – أي طه حسين – كان حذرًا حين أكد أن ثمة نفرًا سيضيقون بهذا الكتاب ذرعًا وينفرون منه، وسيعارضونه، ولذلك دلهم على المصادر التي استقى منها أحداثه؛ وكانت المرجع حين كان يؤلف كتابه، وأثبت هذا في مقدمته "**ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله؛ والجديد في صورته وشكله إلى مصادره القديمة التي أخذ منها، فهذه المصادر قليلة جدًا، لا تكاد تتجاوز (سيرة ابن هشام)، و(تاريخ الطبري)، و(طبقات ابن سعد)، وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد فيه**"[٤٥].

والحق أن طه حسين حاول الالتزام بما حدد لنفسه من حدود في المقدمة، حيث لم يوثق في الهامش إلا تلك الأخبار أو الأحاديث التي كان النبي طرفًا فيها بشكل مباشر، أما ما كان من أخبار العرب، وقصص الصحابة أو شخصيات ما قبل الإسلام فإننا لا نجد لها توثيقًا في الهامش، اعتمادًا منه على التوضيح الذي أثبته في المقدمة وبيَّن فيه منهجه في إيراد الأحداث. إن طه حسين لم يتعن التدقيق في صحة ما يورده من عدمه ما دام قد ورد هذا الخبر أو ذاك في أحد هذه الكتب الثلاث التي أشار إليها في المقدمة، لذلك لم يعمد طه حسين إلى تحقيق هذه المرويات التي جعلها نواة لحكاياته، إلا ما كان منها متصلاً بالرسول بشكل مباشر – كأن يكون قولاً أو فعلاً له عليه السلام – فإنه يورد الخبر بأسانيده.

ولم يوثق طه حسين إلا في ثمانية عشر موضعًا في الكتاب، كان لكتاب الطبقات لابن سعد النصيب الأكبر، حيث وثق من كتاب الطبقات أربعة عشر موضعًا، ووثق موضعًا واحدًا من سيرة ابن

[٤٥] – على هامش السيرة: المقدمة ص١١.

هشام، وموضعًا واحدًا من تاريخ الطبري، ثم موضعًا واحدًا من تفسير الطبري كذلك، وكان التوثيق الأخير من كتاب الإصابة في تمييز الصحابة. إن هذا التوسع الذي أتاحه طه حسن لنفسه جعل منه فريسة لمنتقدي الكتاب ومعارضيه، من أنه لم يحفل بتوثيق الأحداث التي أوردها؛ وأنه لم يوفق في تبيان صحة الإسرائيليات التي ساقها الكتاب في غير موضع، وبخاصة من علم كبير مثل طه حسين ذاعت شهرته وانتشرت مؤلفاته؛ وراجت أفكاره، وقد يحول عمل من أعماله إلى مجال السينما والتلفاز والإذاعة.

كل ذلك جعل من كتاب (على هامش السيرة) على المحك، وفي مرمى سهام النقد الذي لا ينقطع، ونحن في هذه الدراسة لن نتقصى صحة هذه الأخبار من عدمها، فما دامت موجودة في أي من الكتب الثلاثة التي أشار إليها طه حسين فإننا سنوليها نصيبها من البحث والنظر، وبخاصة ما يتعلق بالشخصيات التي هي الهدف الأول والأخير من الدراسة. بالإضافة إلى أن مؤلف كتاب (على هامش السيرة) قد قرر في بدايته أنه سيتعرض لنقد بعض الناس؛ لأن عقولهم لن تستسيغ مثل هذه المرويات المعتمدة على القبول العقلي، ويقرها القلب والشعور، وبالتأكيد ليس هذا مذهب المحدثين المعتمدين على الرواية والتوثيق.

بناء الشخصيات في كتاب (على هامش السيرة)

أولاً: عتبات النص وعلاقتها برسم الشخصيات

تحمل عتبات النص دلالات ومعانٍ وشفرات تزيد من قيمة النص، لأنها توصل بعض أهداف الكاتب من خلال إشاريتها كذلك، وتعد العتبات النصية بجميع أنواعها بوابات ولوج يجتازها المتلقي لمعرفة روح النص والوصول إلى عمقه، فتنير أمام القارئ دروب النص وتبقى هي المنفذ الأساس للدخول إلى النص، فهي "تبرز جانبًا أساسيًا من العناصر المؤطرة لبناء الحكاية ولبعض طرائق تنظيمها وتحققها التخييلي، كما أنها أساس كل قاعدة تواصلية تمكن النص من الانفتاح على أبعاد دلالية، فالعتبات النصية لا يمكنها أن تكتسب خصوصيتها بمعزل عن طبيعة الخصوصية نفسها"(٤٦).

١. عتبة العنوان

إن كل مكونات النص تؤدي إلى بناء علاقة بين داخل النص وخارجه، حيث تظهر قدرة الكاتب من خلال هذه المكونات والعتبات، وبراعته في التحليق بالمعاني والأفكار وتحميل كل ما يقع تحت يده بإشارات وإيحاءات تؤدي عنه الهدف المرجو. ذلك أن "النص الموازي بمكوناته المتنوعة، العنوان الرئيسي والعنوان الفرعي؛ العناوين الداخلية؛ اسم المؤلف؛ الغلاف؛ الإهداء؛ المقدمة؛ الخاتمة وغير ذلك من العناصر النصية الموازية تشكل الإطار الخارجي للنص"(٤٧).

---

٤٦ – عبدالفتاح الحجمري: عتبات النص (البنية والدلالة)، ط١، منشورات الرابطة، الدار البيضاء ١٩٩٦، ص١٦.

٤٧ – خالد حسين: شؤون العلامات (من التشفير إلى التأويل)، ط١، دار التكوين، دمشق – حلب ٢٠٠٨، ص٤٥.

ولقد جاء عنوان الكتاب موحيًا بمنهج صاحبه حين أطلق عليه (على هامش السيرة)، فقد دلت كلمة (هامش)على طريق اختطه لنفسه في سرده للأحداث والمواقف، فمن معاني كلمة (هامش) كما في معجم (المعاني الجامع) الخروج بعيدًا عن الأمر أو الانعزال عن الأمور، أو التعليق على الأخبار، كما يقال على هامش الأخبار أي تعليقًا عليها، وكذلك كان الحال بالنسبة لطه حسين فهو يعلق على بعض حوادث معينة من السيرة وليس موردًا أساسيًا لها، وإن ما دفعه للتعليق على السيرة وجعل حكاياته زيادة حولها لا أساسًا فيها؛ هي رغبة فاضت في قلبه، وإرادة اجتاحت نفسه فثبتت بعض المواقف والأحداث؛ واضطرته اضطرارًا على إخراج مشاعره ومكنونات قلبه فيها. وقد أكد هذا المعنى حين قال "**فإني لم أفكر فيه تفكيرًا، ولا قدرته تقديرًا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون؛ إنما دُفعت إلى ذلك دفعًا، وأكرهت عليه إكراهًا، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلأ بها نفسي ويفيض بها قلبي، وينطلق بها لساني، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين**"(٤٨).

وكان لإيراد حرف الجر (على) دلالته كذلك، إذ من ضمن معانيه الاستعلاء، وكأن الكاتب حين يورد حكاياته بأحداثها وشخصياتها بأسلوبه هو فإنه يحيط بالسيرة من فوقها ومن تحتها وجميع جوانبها دون النفاذ إلى جوهرها، إذ هي معانٍ خطرت له وتأملات عنت له فعلق عليها وجعلها تسير حذاء السيرة لا متقاطعة معها.

هذه الهامشية التي يقررها العنوان خطًا ومنهجًا للكتاب؛ طالت الشخصيات في غير موضع، لذا سنرى طه حسين يتوسع في بنائه للشخصيات أيما توسع. إذ سمح لنفسه ابتكار شخصيات ليس لها وجود حقيقي في التاريخ، وحتى تلك الشخصيات التي لها أصل واقعي تاريخي – ما عدا النبي صلى الله عليه وسلم؛ سمح لنفسه كذلك أن يلج داخل نفسها ويعرض لنا حقيقة مشاعرها وأفكارها، بل ويصفها بأوصاف لم ترد من الأساس في ترجمتها التاريخية. وكذلك تناوله لشخصيات ظلت على هامش المجتمع، ولم تفرد لها السير كثير ذكر في صفحاتها.

إن السلوك الذي يحيل إليه هذا العنوان نابع من شعور قوي سيتملك نفس الأديب برفع الحرج عنه؛ بتقريره أن ما سيورده على هامش السيرة وليس من السيرة ذاتها، وليس في منطقة البؤرة التي هي مظن اهتمام كل أحد. دفع هذا الشعور الكاتب إلى استباحة سردية نقلت نصه نقلة نوعية لم يسبقه إليها أحد، حين أخرج شخصياته الواقعية في صورة تخييلية جديدة محملة بأوصاف وملامح تخدم الأهداف التي يريدها ويبتغي توصيلها.

كما تحيل كلمة الهامش التي يحتويها العنوان إلى مفهوم التضاد الذي هدف إليه المؤلف، حيث الأساسي في مقابلة الهامشي، فقد رأى طه حسين أن ما سيورده في كتابه لم يسبقه أحد إليه في كتاب من قبل، ففكرة الهامشية هنا تؤكد على قدرته التخييلية على إقامة ما ليس موجودًا في بنية السيرة الإخبارية

٤٨ – على هامش السيرة: المقدمة ص٩.

التوثيقية؛ مما يؤكد فكرة الانعزال والاستقلال في الفكر والإبداع. فثمة علاقة بين فكرة الهامش والقدرة على تكوين واقع إنساني وفكري بديل في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهنا تتجلى قدرة طه حسين في كشف مالم يقله التاريخ؛ وكشف المسكوت عنه في الواقع التاريخي والتنقيب عنه من خلال نسج خياله الروائي المبدع، وهو يتسق مع ما كتبه في مقدمة سيرته مبينا هدفه وغرضه.

٢. عتبة المقدمة

إن تجليات العتبات تظهر في كل المكونات السردية الفرعية مثل المقدمات وغيرها حتى الصور على الغلاف، ولعل المقدمة هي أبرز العتبات النصية التي يظهر فيها كمرآة عاكسة كل ما هو داخل النص، وما يريده المؤلف من هذا النص. فتصبح المقدمة بوابة للثراء الدلالي من خلال ربطها في المجمل بالنص ككل، لأنها "تهدف إلى إنتاج خطاب على مشارف النص الذي تسبقه، فهي بالتالي مقدمات أصلية تخبر القارئ حول أصل الأثر الأدبي، والظروف التي كُتب فيها، وكذا خطوات تشكيله"(٤٩)، وقد كانت مقدمة طه حسين لهذا الكتاب محددة لمنهجه الذي سار عليه ولم يحد عنه، وكذلك موضحة لأهدافه من الكتاب، وحدد كذلك فيها ملامح ما سيظهر من أحداث وشخصيات، لتمثل مقدمة كتاب (على هامش السيرة) أهم عتبة من عتباته، ولا غنى للقارئ عن الوقوف مليًا أمامها، والاطلاع المتأني عليها قبل الولوج إلى النص ذاته.

إن طه حسين يقرر بداية وفي أول سطور المقدمة، أنه سيبسط الأدب المقدم للجمهور، ليرغبوا في قراءة هذا التاريخ البعيد، الذي ينفرون عنه لطول مروياته وتذوقه الصعب. فيقول: "**يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ومن اللذة والمتاع ما يغريهم به ويرغبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرًا، وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد**"(٥٠).

يريد طه حسين أن يقدم أدبًا خالدًا، وباقيًا لكل جيل، أدب لا ينتهي أثره بعد قراءته مباشرة بل يمتد ويطول هذا الأثر؛ ولا يمحى. فهدف طه حسين نبيل وغايته راقية "**إلى هذا النحو من إحياء الأدب العربي القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب**"(٥١). ولأن هذا هو هدف الكتاب فإننا نجده خلوًا من التكلف والتصنع، أو محاولة المؤلف الإجادة المبالغ فيها، ولا اقتراب من التعقيد كما يقرر في ذات الصفحة السابقة، بل يأتي الكتاب صورة طبيعية صادقة للتعبير عن المشاعر التي أحسها، وحرصه الشديد على أن يقرأ الناس هذا التاريخ وهذه السير.

---

٤٩ – عبدالمالك أشهبون: عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية ٢٠٠٩، ص ص ٥٩ – ٦٠.

٥٠ – على هامش السيرة: المقدمة ص٧.

٥١ – على هامش السيرة: المقدمة ص٩.

ثم حدد معايير النجاح لكتابه هذا، وذلك في المقدمة أيضًا من خلال ثلاث فقرات متواليات، فقال: "**وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في قلوب الشباب حب الحياة العربية الأولى ... أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعًا قيمًا خصبًا ... وأن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد ... فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد**"[٥٢]، هذه أهداف ثلاثة يبتغي طه حسين تحقيقها من وراء وضعه لهذا الكتاب، ويرى أنه سيسعد قلبه وتحلق روحه إن تحققت أهدافه هذه أو كلها.

وكما أشارت عتبة العنوان إلى التوسعة التي منحها طه حسين لنفسه، فإنه في المقدمة كذلك يصرح بهذا المنهج تصريحًا مباشرًا، فهو يقرر أنه لن يورد القصص والشخصيات كما هي في كتب الأقدمين؛ بل أجاز لنفسه التوسع والتحوير، وأجاز لنفسه التبديل والتغيير ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فالمهم عنده هو تحقق الأهداف التي وضعها والتي سبق ذكرها، فكل وسيلة تساعده على تحقيقها هي وسيلة مباحة؛ ما دامت لم تأت على معلوم يقيني لا يجوز التغيير فيه، مثل الأخبار التي تتصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، أو الأحداث التي يكون النبي طرفًا فيها أو فاعلاً فيها، فإننا سنجد أوصاف النبي كما هي، والأحداث ترد بأسانيدها.

كان هذا هو المنهج الذي اختطه طه حسين لنفسه في كتابه، وقرره في مقدمته؛ فقال: "**وأحب أن يعلم الناس أيضًا أنني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها حرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسًا، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي صلى الله عليه وسلم أو بنحو ذلك من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية وعلماء الدين**"[٥٣].

وبذلك نجد طه حسين قد وسع لمخيلته الحدود وآفاق التخييل فيما يخص الشخصيات، فأعمل فيها تبديلاً وتغييرًا فيما ليس بمثبت أو يقيني، فابتكر شخصيات جديدة، ووصف أخرى، وولج إلى داخل الشخصيات، وتكلم بلسان بعضها، وأنطق أخرى، مما جعلنا نتقبل هذه الشخصيات في إطارها السردي الذي شيده طه حسين في فصوله وحكاياته.

٣. عتبة عناوين الفصول

تأتي عناوين الفصول كإضاءات نصية تبين الطريق وتظهره أمام المتلقي كل فترة، ليكون عنوان الفصل ذا دور مهم لموقعه الحيوي من النص، ويصبح حلقة وصل كل فترة بين القارئ والمؤلف، وبين القارئ والنص، ويُذكر المتلقي كل حين بهدف النص الذي قد ينساه مع مضيه في القراءة. ومن هذا المنطلق فإن عنوان الفصل يعد "أحد العتبات الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها، حيث يشكل عتبة

٥٢ – على هامش السيرة: المقدمة ص١٠.

٥٣ – على هامش السيرة: المقدمة ص١١.

أساسية في تحديد الأثر الأدبي، فمن خلاله تتجلى جوانب جوهرية تحدد الدلالات العميقة لأي نص"[٥٤]، وإذا كان العنوان العام له دلالة على ما بين دفتي الكتاب؛ فإن عناوين الفصول لا توضع بشكل اعتباطي، بل هي موجهة وهادفة؛ ومرتبطة ارتباطًا عضويًا بالنص. بل يعد هذا العنوان الفرعي نصًا صغيرًا يضعه الكاتب بقصدية ليصبح "كالاسم للشيء، به يعرف وبفضله يتداول، يشار به وإليه، ويدل عليه، فالعنوان ضرورة كتابية"[٥٥].

وتحفل عناوين الفصول في كتاب (على هامش السيرة) بالإشارات والدلالات الموحية، فمن بين ثلاثين عنوانًا للفصول في الأجزاء الثلاثة نجد عشرين عنوانًا ذات صلة بصفات لشخصيات في الكتاب، وهذا الأمر له دلالته الكبيرة؛ إذ يوحي بمنهج الكتاب المتبع في بيان هذه الشخصيات وكيفية بنائها، كما تظهر عناوين الفصول كذلك نتيجة التوسع الذي اتكأ عليه طه حسين، والتغيير الذي أخذ به الشخصيات، حتى وإن كانت شخصيات حقيقية لها وصفها المثبت في كتب السيرة والتاريخ.

أ. ففي الجزء الأول نجد عنوان الفصل الثامن (الطاغية)؛ ويشير بهذه الصفة إلى شخصية وردت في تاريخ العرب القديم وأيامهم قبل الإسلام، واسمه (ذو الشناتر) وكان صهرًا لعمرو بن الملك تبع الحميري، وقد قتل عمرو هذا أخاه حسانًا واستقل بالملك من بعده، وقد أسبغ طه حسين على (ذي الشناتر) كثيرًا من الصفات السيئة تجعل القارئ في حالة نفور تام منه ويتمنى لو تم قتله والتخلص منه. بينما نجد في الفصل التاسع عنوانًا دالاً آخر وهو (البشير)، ويحكي عن الراهب (كيمون) وهو شخصية متخيلة؛ ابتكرها طه حسين ليقدم من خلالها الأحداث التي وقعت في عهد الملك (ذو نواس)، الذي قتل الملك السابق (ذو الشناتر)، ويورد السارد على لسان الراهب (كيمون) هذه الوقائع وأخصها ما حدث لمسيحي نجران من قتل وتحريق فيما سمي بعد ذلك (أصحاب الأخدود).

ومثل شخصية (كيمون) نجد شخصية (راهب الإسكندرية) والذي كان عنوانًا للفصل العاشر، ولم يسم طه حسين راهب الإسكندرية هذا بل اكتفى بهذه الصفة التي هي في ذات الوقت عنوان الفصل، ويقدم طه حسين من خلال هذا الراهب الأحداث التي وقعت قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، وأبرز ما رواه راهب الإسكندرية شهادته المعاصرة للملك أبرهة الأشرم ومحاولته هدم الكعبة، فيما سمي بعد ذلك (عام الفيل / أصحاب الفيل)، كل هذا رُوي على لسان هذه الشخصية المصطنعة، والتي امتازت بالتقوى والصلاح.

أما العناوين الثلاث المتبقية في الجزء الأول فهي: اليتيم ويشير بهذه الصفة إلى النبي عليه السلام، ثم الحاضنة ويخص بهذا الوصف حاضنة النبي بعد وفاة أمه (أم أيمن)، فيسرد لنا قصتها ويصف لنا شعورها ناقلاً للمتلقي ما تحسه من حنان وحدبٍ على النبي عليه الصلاة والسلام، وأخيرًا عنوان

٥٤ – خالد حسين: في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دار التكوين، دمشق ٢٠٠٧، ص٢٨.

٥٥ – محمد فكري الجزار: العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨، ص١٥.

(المرضع)، ويقصد بهذه الصفة مرضع النبي وهي (حليمة) بعدما يحكي قصة المرضعات جميعًا وما حدث مع حليمة قبل أخذها الطفل اليتيم وبعده، كل هذا القص بأسلوب سردي يبني من خلاله شخصية حليمة وأم أيمن وغيرهما من الشخصيات.

ب . أما الجزء الثاني فيحتوي أربعة عناوين تشير إلى أوصاف شخصيات، بدأها بعنوان (الفيلسوف الحائر)، ويشير به لشخصية رومانية ابتكرها طه حسين في هذا الفصل وسماها (كلكراتيس)، وجعل منه رمزًا للباحث عن الحقيقة، وتبدو قصة (كلكراتيس) هذا قريبة الشبه بقصة سلمان الفارسي، في ارتحاله الدائم ووقوعه في الأسر انتظارًا لمبعث نبي آخر الزمان. بينما عُنون الفصل الثاني بـ (راعي الغنم)، وفيه تناول نشأة النبي صلى الله عليه وسلم الأولى، وبداية صباه وشبابه، وتدرجه في العمل أولاً كراعي غنم ثم تاجرًا في مال خديجة، نهاية بزواجه منها.

ثم نجد اسمًا مباشرًا لشخصية الفصل التالي في عنوان الفصل ذاته (حديث باخوم)، وقد جعل طه حسين من هذه الشخصية ذات دورٍ مهم في تاريخ قريش وبيت الله الحرام، حين جعله القائم ببناء الكعبة بعدما تهدمت إثر سيل جرفها فوقعت أجزاء منها، وقد تناول طه حسين هذه الشخصية بشيء من البسط والوصف، فجعله مصريًا من قبط مصر، وسرد من خلاله أحداث هذه الفترة من تاريخ العرب. ثم أخيرًا في ها الجزء نرى فصلاً بعنوان (صاحب الخان)، الذي سماه بعد ذلك في الجزء الثالث (نسطاس الرومي)، وأضفى طه حسين على هذه الشخصية الكثير من المعرفة، فهو ينتظر مبعث نبي آخر الزمان ويعرف أن مكة هي مكان مبعثه، كما جعله عينًا لجماعة من الروم في هذه الأرض لينقل لهم ما يحدث فيها أولاً بأول.

جـ . وعن الجزء الأخير من الكتاب، فقد تعددت أوصاف الشخصيات في عناوين فصوله، إذ بدأ بعنوان الفصل الأول (صريع الحسد)، وتناول فيه شخصية أبا جهل ورسمه بتفصيل دقيق، ثم تبعه فصل بعنوان (سيد الشهداء) وهو وصف لحمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام. ثم فصل بعنوان (ذو الجناحين) ويصف به جعفر بن أب طالب والذي قتل شهيدًا في معركة مؤتة، وقطعت ذراعاه فأبدله الله منهما جناحين يطير بهما حيث يشاء.

ثم نجد عنوان الفصل التالي (طريد اليأس) ويطلق طه حسين هذا الوصف على أحد العبيد الذي قتل مسلمًا وندم بعد ذلك على فعلته، وقتله ندمه الشديد بعد ذلك. ومثله عنوان (نزيل حمص) والذي يصف به وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب، ويصور طه حسين حياة هذه الشخصية ببؤس وشقاء كبيرين، بعدما أدركه اليأس ووقع فريسة إدمان الخمر؛ ومعاقرتها حتى صرعته، وقد ورد في هذا الجزء أيضًا فصلين يحملان عنوانًا باسم الشخصية صاحبة الفصل مباشرة، هما (مصعب بن عمير – حديث عداس).

إن عتبة عناوين الفصول في كتاب (على هامش السيرة) لتؤكد اتجاه طه حسين في رسم الشخصيات بشكلٍ خاص، فهو ينطلق من الشخصية وليس الأحداث، فلقد اهتم اهتمامًا كبيرًا بوصف

الشخصيات وبنائها وبيان ما قامت به من أحداث وليس العكس، وكانت مهمته هي إقناع القارئ بهذه الشخصيات؛ وأنه من الطبيعي أن تقوم بما قامت به بالفعل، وذلك في ظل مكوناتها العقلية والجسدية والعاطفية.

لقد كان اهتمام طه حسين في كتاب (على هامش السيرة) موجهًا في المقام الأول للشخصية ووصفها، وتتبع ما تقوم به من أحداث وفق هذا البناء، ليقيم من خلال عناوين الفصول شكلاً من أشكال التجريد القائم على تعظيم الرؤية الفنية، من خلال بيان الوصف الذي امتازت به شخصية دون أخرى، كما أن هذا التجريد الظاهر في العناوين يجعل عملية التحوير الفنية مستساغة حين يُقدم طه حسين الشخصية في المتن. وبذا تمثل عناوين الفصول – من جهة أخرى – استباقًا زمنيًا يمهد المبدع من خلاله للشكل الذي ستأتي عليه الشخصية الرئيسة في الفصل، بدءًا من مولدها ونهاية بموتها.

ثانيًا: أنواع الشخصيات ووصفها

قدم كتاب "على هامش السيرة" كثيرًا من الشخصيات؛ ولكي نتتبع بناء هذه الشخصيات يتعين علينا أن نقرر أي تصنيف سنعتمد في تقسيمها، هناك تصنيفان شائعان يتناولان الشخصية ويقسمانها، فالتصنيف الأول يربط بين الشخصية والحدث، وهنا يُنظر إلى "أهمية الدور الذي تقوم به الشخصية في السرد، فقُسمت الشخصية إلى رئيسية أو محورية، وشخصيات ثانوية مكتفية بوظيفة محورية"[٥٦]. إن الشخصية في هذا التصنيف تُقسم تبعًا لدورها الوظيفية في النص الإبداعي.

بينما يصنف الاتجاه الآخر الشخصية تبعًا لنموها وحركتها التطورية؛ أو سكونها، وبناءً على ذلك قُسمت الشخصية إلى قسمين "القسم الأول يتضمن الشخصية السكونية؛ التي تظل على نمطٍ واحد طوال السرد، لا تتغير أو تخضع لأي نمو أو تطور. والقسم الثاني يتضمن الشخصية الدينامية، وهي الشخصية التي لا تبقى على نمطٍ واحد طوال السرد، بل تخضع للتغيير أو التبديل وهي دائمة الحركة والتغير، وتمتاز بالتحولات المفاجئة التي تطرأ عليها داخل البنية الحكائية الواحدة"[٥٧].

وقد ارتبطت الشخصيات التي وردت في كتاب "على هامش السيرة" بالأحداث، إذ لا نرى وصفًا مستقلاً يبين التطور الحادث في الشخصية من عدمه، بل جاء وصف الشخصيات مرهونًا بما تقدمه من حدث أو تشارك فيه، أو ترويه، ولذا فإننا سنعتمد التصنيف الأول في تقسيم الشخصيات الواردة في الكتاب، من حيث هي شخصيات رئيسية أو ثانوية.

---

٥٦ – حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص٢١٥.

٥٧ – المرجع السابق: ص٢١٥.

أ. الشخصيات الرئيسية

وهي الشخصية التي تضطلع بالدور الأكبر في صناعة الأحداث والقيام بها، وتكون مسيطرة على خط سير الأحداث روائيًا، وهي كذلك "التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام، وليس من الضروري أن تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائمًا، ولكنها الشخصية المحورية؛ وقد يكون هناك منافس لهذه الشخصية"(٥٨). أي أن الشخصية الرئيسية تكون فاعلة لا تُحرك من قِبل الآخرين، فتصنع هي الحدث والموقف، وما تؤديه من مهام يكون له أكبر الأثر في توجيه الأحداث بشكل كبير إلى غايتها وأهدافها.

ويزخر كتاب "على هامش السيرة" بشخصيات كثيرة يمكن تصنيفها على أنها شخصيات رئيسية، ويمكن أن نتناولها في الصفحات التالية:

١. عبد المطلب بن هاشم

حفل كتاب (الطبقات الكبير) لابن سعد بصفات وحوادث تخص هذه الشخصية، إذ بدأ بسرد حياته منذ نشأته الأولى في فصل مستقلٍ يحمل اسمه، فبدأ بولادته في يثرب ونشأته بين أخواله هناك، ثم ذهاب عمه "المطلب" إلى يثرب بهدف إرجاع ابن أخيه إلى مكة، وقدم كتاب الطبقات كذلك بعض شذرات تصف ملامحه الخارجية، وبعضًا من صفاته العقلية والخُلقية. وحكى ابن سعدٍ كذلك الحوادث التي مرت بعبد المطلب كحفره بئر زمزم، وما كان من نذره أن يذبح ولدًا من عياله إذا بلغوا عشرة ذكور، ثم ما كان من موت ابنه المفدي عبدالله، وصولاً إلى رعايته للنبي عيه الصلاة والسلام حتى وفاته وعمر النبي ثماني سنوات.(٥٩)

جاء وصف عبد المطلب في أكثر من موضع في كتاب الطبقات "**لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفًا**"(٦٠)، وكذا في صفحة (٦٦) من الجزء الأول "**وكان عبد المطلب أحسن قريش وجهًا وأمدّه جسمًا وأحلمه حلمًا وأجوده كفًا، وأبعد الناس عن كل موبقة تفسد الرجال، ولم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه، وكان سيد قريش حتى هلك**". وأورد ابن سعد كذلك سبب تسميته بعبد المطلب، حين حكى قصة رجوعه إلى مكة رديفًا لعمه المطلب فنظر الناس إليهما وقالوا: عبد المطلب فسارت بين الناس. وورد وصفٌ أيضًا لعبد المطلب في صفحة (٦٧) من الجزء الأول من الطبقات، وكذلك وُصف بالمهابة والشرف والسؤدد حين دخل على أبرهة الحبشي إبان مجيئه لهدم الكعبة، وجماع الصفات كلها التي وردت في كتاب الطبقات عن عبد المطلب تدل على جمال عبد المطلب وهيبته وإشراق وجهه، وأنه كان طوالاً من الرجال، وكذلك كان سيد مكة في حينه بحكمته وعقله الراجح.

---

٥٨ – إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، مرجع سابق، ص٢١٠.

٥٩ – انظر: محمد بن سعد بن منيع الزهري: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق (علي محمد عمر)، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠١، جـ١، ص٦٢ وما بعدها.

٦٠ – المصدر السابق: جـ١، ص٦٣.

ولقد أخذ طه حسين هذه الصفات فألزمها عبد المطلب في كتابه؛ مع زيادة فيها وتوسع، ففي أول فقرة من الكتاب على الإطلاق يبدأ في تقديم صورة لعبد المطلب "**كان عبد المطلب سمح الطبع رضي النفس، سخي اليد، حلو العشرة عذب الحديث، وكان عبد المطلب قوي الإيمان، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، ولكنها غامضة، يحسها ويخضع لها**"(٦١)، لا نلمح اختلافًا كبيرًا بين وصف عبد المطلب هنا وما ورد من هيئة له في الطبقات، اللهم إلا ما كان من أسلوب طه حسين ولفظه الذي صنع اختلافًا بسيطًا. وأن طه حسين زاد حلاوة عشرته وطلاوة حديثه، كما أراد طه حسين أن يمهد لما هو آت من أحداث النبوة فجعل من جدِّ النبي رجلاً مؤمنًا قوي الإيمان، وجعله – كذلك خاضعًا لقوة غيبية تحركه وتحدثه أحيانًا فيسمع لها ويطيع.

ونلاحظ في تقديم طه حسين لشخصية عبد المطلب أنه كشف داخلها أمامنا، فبين طريقة تفكيرها، ونقل مشاعرها الداخلية، وهواجسها النفسية، ووضح كذلك طريقة أخذه للأمور ومعالجته لها، فقد حلل شخصية عبد المطلب وخصاله "**على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز، فلم يكن يصدر في حياته كما كانوا يصدرون عن الروية والتفكير وطول التدبر، وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويغلو في الإباء، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ويأتمر بأمرها**"(٦٢)، ساق طه حسين في السطور التي تسبق هذه الفقرة تأكيده على رجاحة عقل عبد المطلب؛ وعزته وإبائه وذكائه كذلك، ولكنه في أكثر من موضع يركز على تلك القوة الخفية التي ميزته عن باقي فتيان قريش، فهو متصل بشكل ما بصوت خفي، وقوة تحركه ويخضع لأوامرها في نهاية المطاف. ولقد برزت هذه الصفة فيه أكثر؛ وقت حفره بئر زمزم، حيث أمره الصوت – الرامز للقوة الخفية – بحفر البئر مرات متتالية في المنام.

واتخذ طه حسين من هذه القوة الخفية المرتبطة بعبد المطلب ذريعة للولوج إلى نفسه، فجعل منه شخصًا دائم الفكر، ينظر إلى السماء يبتغي منها راحة لما يؤرقه "**ففكر وأطال التفكير، وقدر فأطال التقدير، وتقلب في مضجعه فأكثر التقلب، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه، فجلس يرقى ببصره الحائر إلى السماء لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا، ويخفض ببصره إلى الأرض لعله يجد في إطراقه تفسير هذه الرؤيا**"(٦٣).

والحقيقة أن شخصية عبد المطلب كما قدمه طه حسين تحمل قدرًا من التشتت النفسي في بداية أمره، إذ لا يجد تفسيرًا لما يسمعه من صوت أو تنتابه من رؤى، فأخافه ذلك وحاوطته الظنون والوساوس، وتعددت الأوصاف المؤكدة لهذا المعنى؛ كما في صفحة (١٧) إذ نراه يفيق من نومه "**وجلاً مذعورًا،**

٦١ – على هامش السيرة: ص١٥.

٦٢ – على هامش السيرة: ص١٥.

٦٣ – على هامش السيرة: ص١٦.

معجبًا آملاً، ويفكر ويقدر ويتقلب ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة، ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم، ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام؛ فيهيم على وجهه".

إن رسم شخصية عبد المطلب جاء بشكل مبالغ فيما يخص الحيرة التي انتابت نفسه، والقلق الذي يعتوره جراء الصوت الذي يسمعه، والرؤيا التي أُمر فيها بحفر زمزم، ولعل تفصيل طه حسين وتكراره لهذه الحيرة ووصفه لعبد المطلب بها؛ راجع إلى الرغبة في بيان الحدث العظيم الذي سيقدم عليه، وأنه شخص مختار، وسيهدأ قلبه حين تنجلي أمامه الأمور.

ولئن كان طه حسين قد اتفق مع ما ورد في كتب السير من أن عبد المطلب كان مشرق الوجه، باسم المحيا، ناضر الطلعة، فإنه اتفق مع هذه المرويات كذلك في بيان حكمته؛ وسيادته لقومه، فهو يأمرهم بالتأني والرجوع على حكم يرتضونه ليفصل بينهم "**يا قوم فيم قطع الأرحام وخفر الذمام وإراقة الدماء! إني والله ما أؤثر نفسي من دونكم بشيء، فإن أبيتم أن تؤمنوا لي فهلم إلى حكم فليقض بيننا**"(٦٤)، لم ترد هذه الفقرة بألفاظها في كتاب من كتب التاريخ أو السير، ولكن طه حسين قدم هذا السياق بأسلوبه الأدبي واصفًا فيه عبد المطلب بصفة تواترت عنه، وهي صفة الحكمة والهدوء والروية في الأمور، وأن كلامه كان قليلاً ولكنه مسدد؛ فصلٌ، وأن قريشًا كانت ترجع إليه للفصل في مدلهمات الأمور.

وظهر هذا التلاقي بين وصف طه حسين لهذه الشخصية وما ورد في الطبقات وغيرها؛ في صفة القيادة والسؤدد؛ حين نزل عبد المطلب من عند أبرهة الحبشي فأمر أهل مكة بالنزوح إلى الجبال، وترك مكة تمامًا، فاستمعوا له وأطاعوه. وكذلك بين طه حسين مدى التقوى والورع الذي عليه شخصية عبد المطلب، فقد أخذ عبد المطلب مائتي ناقة – ملكه – من أبرهة "**فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هديًا إلى هذا البيت، الذي لم يرد أن يتحدث إلى الملك فيه**"(٦٥).

كما يتفرد طه حسين برسم شخصية عبد المطلب رسمًا متفردًا وجديدًا لا نراه في كتب التراث، فهو شخص محب لأهل بيته عطوف على زوجاته، حنون القلب، كما قالت سمراء زوجته "**ولكني وجدت نعمة وليِّنًا، ووجدت حبًا وعطفًا، ووجدت عناية لا تعدلها عناية**"(٦٦)، بدأ طه حسين يضفي صفات تزيد ملامح هذه الشخصية وضوحًا وبيانًا، فبجانب اتفاقه مع كتب التراث في صفاته المقررة، نراه يزيد على ذلك صفة الحنان والعطف، والحدب العاطفي مع أهله، زيادة على الصفة الأكيدة وهي تواصله مع قوة خفية تحركه وتقود خطاه في الحياة.

---

٦٤ – على هامش السيرة: ص٢٨.

٦٥ – على هامش السيرة: ص١١١.

٦٦ – على هامش السيرة: ص١٩.

ويرسم طه حسين صورة مناقضة لعبد المطلب في نهاية تقديمه له، صورة قوامها الحزن والقلق في آخر عمره، حزنًا على فراق ابنه عبدالله، وذلك يوم خرج مع قافلة التجارة إلى الشام ثم تأخرت عودته، فاستلمته الأحزان، ونهشته الأوهام والأوجاع "**فكر في ذلك، أحس خوفًا مرًا تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور، كأنما كان يسأل نفسه: أفي الحق أن قد انتهى الصراع بيني وبين الموت! أفي الحق أني قد استخلصت هذا الفتى للحياة ووهبته للحياة المتصلة والبقاء الطويل؟ ... وكذلك اتصلت حياة الشيخ منذ ارتحل ابنه مضاعفة**"[٦٧]، لقد قدم طه حسين شخصية عبد المطلب في هذه المرحلة من حياته في صورة مختلفة عما سبقتها. فليس هو الشخص الهادئ الرزين، الصبور المتحمل لنوائب الدهر، والذي يزن الأمور بميزان العقل والحكمة لا العاطفة والوجدان، فيصوره في أكثر من موضع في صورة الشخص الذي تكاد نفسه تذهب حسرات بعد غياب ابنه عنه.

فقد جزع أيما جزع بعد ارتحال القافلة، وتذبذب حاله بين الألم والحزن عندما علم بمرض ابنه الأثير، فكثرت المنولوجات الداخلية، التي ينتقل فيها السرد من الحكاية بضمير (هو) إلى ضمير (أنا)، فينتقل الكلام من خلال ضمير المتكلم إلى عبد المطلب ليعبر عما يحسه ويعتمل بداخله. ونجد مثل هذا البوح الداخلي في صفحة (٥٣) من الجزء الأول، وقد استغرق وصف مشاعر عبد المطلب إبان محنة ابنه الكثير من الصفحات كذلك (٥٢ – ٥٣ – ٥٦ – ١١٥ – ١٧٧)، فكانت نفسه تعاني وفكره لا يتوقف "**ألم يصارع الموت عن ابنه صراعًا، ألم يشتر ابنه من القضاء شراء! فما هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسلط؟ يفادي ابنه بالإبل فيشتط عليه القضاء ولا يرضى حتى يبلغ المائة، وفيم كان انتصاره؟ وفيم كان ابتهاج بني هاشم؟ وفيم كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت، وإفلات الشباب من مدية المضحي؟**"

ولعل مبالغة طه حسين في هذه الأوصاف النفسية لعبد المطلب، وإظهار جزعه وحزنه على ابنه كانت تمهيدًا لميلاد النبي، عندما جعل من النبي صلى الله عليه وسلم مالئًا لهذا الفراغ في قلب جده، ومذهبًا لحزن نفسه، إذ جعل طه حسين هذه الحالة تزول بمولد النبي محمد عليه السلام "**وعبد المطلب جالس في الحجر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث، وهو يسمع إليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه، فيفكر في فقيده الذي لا يستطيع أن ينساه ... فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل السكينة على قلبه، وجلا عن قلبه الحزن، ورده على غبطة وسرور بعد عهده بهما**"[٦٨].

إن التغيير الذي ساقه السارد في شخصية عبد المطلب لم يحدث إلا مع مولد هذا الطفل المبارك، ولكن مع ذلك فإن حالة الزهد، وعدم الرغبة في أيٍ من متع الحياة لا يفارقان عبد المطلب، وكذلك بالغ

---

٦٧ – على هامش السيرة: ص٥٣.

٦٨ – على هامش السيرة: ص١١٩.

طه حسين في بيان حالة الحنان والشفقة والحنو الذي أولاه الشيخ لهذا الطفل اليتيم، كما في صفحة (١٤١)، إذ كان "**به حفيًا، وعليه حريصًا، يكرمه ويؤثره بالخير، ويمنحه من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم، وكأنه قد جمع في قلبه نصيب ابنه عبدالله من حبه، أكثر من ست سنين يزيده وينميه**".

إن طه حسين قد اتفق في المعنى في بعض ما ورد من وصفٍ لعبد المطلب في كتب السير، وذلك فيما يخص صفاته الجسدية والعقلية، فهو مشرق الوجه وباسم المحيا... إلخ، كما أنه حكيم وصاحب فطنة وذكاء ... إلخ، لكن لفظ الوصف لم يتفق بالطبع؛ فقد جاء لفظ طه حسين وأسلوبه بشكل واضح سلس، لا غرابة فيه ولا تقعر. ونجده أيضًا يرسم صورة له لم ترد في كتب الأقدمين عنه، صورة نفسية وعاطفية وظف في بيانها أسلوب السرد المباشر والمنولوج الداخلي، فقدم من خلالهما بيانًا لنفسية عبد المطلب، ونقل لنا أحاسيسه ومشاعره وبرر لنا بعض أفعاله تجاه قريش وبنيه وحفيده اليتيم.

وقد استغرقت قصة عبد المطلب والأحداث التي ساهمت شخصيته في قيامها وصنعها معظم الجزء الأول من الكتاب، لتكون هي الشخصية الأبرز والأوضح في هذا الجزء. إذ لا يكاد يخلو فصل من وصفٍ له أو حدث قام به، ويقرن طه حسين كل ذلك ببيان نفسي لما يعتمل في نفسه ووجدانه، وبهذا ينفرد طه حسين بالوصف النفسي والعاطفي لشخصية عبد المطلب مقارنة بما ورد له من مكونات وصفية في كتب التراث، بالإضافة إلى الأسلوب الأدبي المميز الذي غيّر من خلاله ملامح الصفات المشتركة بينه وبين كتب السير والتاريخ.

٢. خديجة بنت خويلد

ورد ذكر خديجة كثيرًا في كتب السير والطبقات، ولكن ذكرها كان مقرونًا بحياتها مع النبي، أو ما كان متصلاً بموقف أو قول مع الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا نجد لها وصفًا مستقلاً يبين ملامحها الجسدية على سبيل المثال، وكذلك الحال في الجانب النفسي. فقد كان اهتمام هذ الأخبار والمرويات منصبًا على بيان نسبها وحالتها الاجتماعية، ومكانتها بين قومها قبل زواجها من النبي محمد عليه السلام وبعده، وكذلك سُلط الضوء على عظيم مؤازرتها لزوجها حين بدأ دعوته.

ففي كتاب الطبقات نرى ابن سعد قد أفرد لها فصلاً بعنوان (ذكر خديجة)، ذكر فيه نسبها وشرفها، وأكد على صفة الحلم ورجاحة عقلها، وذكر زواجه الأول كذلك. ثم بين أنها رغبت في خروج النبي للتجارة في مالها، فقال عنها ابن سعد "**كانت خديجة ذات شرفٍ ومال كثيرة وتجارة تبعث إلى الشام، فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة**"[٦٩]، وقد ساق ابن سعد في

٦٩ – كتاب الطبقات: جـ١٠، ص١٧.

هذا الفصل أيضًا حياة خديجة بعد زواجها من النبي، وكيف أنها سعت في هذا الزواج حتى تم، وذكر أولاد النبي منها، ليصل الفصل إلى نهايته بذكر موت خديجة وما يتصل بذلك من حوادث قبله وبعده.(٧٠)

وقد تناول طه حسين شخصية خديجة في فصل كامل عنوانه (راعي الغنم)، وجاء وصفه لها متفقًا من جانب ما مع صفاتها التي أوردها ابن سعد، فطه حسين يصفها بذات الأوصاف مع اختلاف اللفظ "**وأنت من تعلمين مكانة في قومك، وارتفاعًا في نسبك، وضخامة في المال وسعة في الثروة، وسلطانًا على نفوس الكهول والشباب من سادة قريش وأشراف مضر، كلهم سعى إليك وكلهم رغب فيك وكلهم خطبك، وتمنى أن تكوني زوجًا له**"(٧١)، أتى وصف شخصية خديجة في جمل مقسمة متساوية وبديعة، كرر فيه السارد المعنى المراد تثبيته وترسيخه في نفس المتلقي. فأشار إلى علو مكانتها وكثرة مالها، ورغبة السادة والأشراف في الفوز بها ونيل رضاها، ومن الملاحظ أن طه حسين قد وافق كتب السيرة في عدم إيراد أي وصف جسدي لخديجة على الإطلاق، ولعل هذا يرجع إلى غيرة العرب ونخوتهم، وعدم تعرضهم لذكر النساء بوصف يبين ملامح جسدية أو جمالية لهن.

ولكن طه حسين يورد تفصيلاً لشخصية خديجة ينفرد به في كتابه، حيث يدخل إلى نفسها، فيكشف عميق مشاعرها، وينقل لنا ما تفكر فيه وما يدور بخلدها، وخاصة ما يتعلق بإعجابها بالفتى الشريف محمد، فقد تعلقت نفسها بهذا الشاب الذي لُقب بالصادق الأمين، النضر الوجه؛ فتتبعت أخباره سواء من النسوة اللاتي يجالسنها ويسمرن عندها، أو من ميسرة ذلك العبد الذي أنفذته مع محمد حين خرج بتجارتها ومالها، وقد استغرق هذا المعنى معظم الفصل الذي خصصه المؤلف لشخصية خديجة، فركز عليه؛ وجعل محور حياة خديجة في هذا الفصل تدور حوله.

ففي الصفحة الأولى يقدم هذا المعنى، متعمقًا في نفس خديجة، واصفًا أدق مشاعرها "**قالت خديجة لنسائها في صوت المروعة المأخوذة: أقبلن فانظرن فإني أرى شيئًا ما رأى الناس مثله قط ... قالت خديجة وقد امتلأ صوتها حنانًا وحبًا، وإعجابًا وإكبارًا: إنه والله لرجل من الناس قد عرفت أمه وأباه وشهدت مولده ... كانت مأخوذة بمنظره قبل أن يدخل عليها، ثم أخذت بمنظره ولفظه حين تحدث إليها، وكانت في حاجة إلى الوقت لتسترد نفسها، وتستنقذ صوابها، وتخرج من الإفاقة من هذا الذهول**"(٧٢). سار طه حسين على هذا النهج في وصف خديجة طوال الفصل، حيث أبرز تعلق خديجة الشديد بشخص النبي عليه الصلاة والسلام وهو شاب، فهي متلهفة على أخباره، تفقد زمام نفسها أمام طلعته – وهي الحكيمة الحصيفة، ذات المكانة في قومها ومجتمعها.

---

٧٠ – انظر: المصدر السابق، جـ ١٠، ص١٠ + ص١٥ وما بعدها.

٧١ – على هامش السيرة: ص٢٢٨.

٧٢ – على هامش السيرة: ص٢٢٧.

بل ويبين طه حسين حالة الحزن الشديد، والقلق الذي ينهشها حين كانت تنتظر مقدم العير التي فيها النبي محمد عليه السلام كما في صفحة (٢٢٩)، وكانت تنكر نفسها وتستغرب هذا القلق وهذا الاضطراب من نفسها، وهي سيدة "**جلدة حازمة، صبورًا وقورًا، متزنة النفس، معتدلة المزاج، ترضى فلا يخرجها الرضاء عن طورها، وتسخط فلا يغير السخط من شأنها شيئًا**"(٧٣)، ركز طه حسين في وصفه لخديجة وتقديمه لها – إذاً –على الجانب العاطفي والنفسي، فرسم شخصية عظيمة الميل للشاب محمد الصادق الأمين، ويتابع قلبها بلهفة أخباره، وتلتقط القصص التي تداولها أهل مكة عنه، وهي مع ذلك عاقلة حازمة، لبيبة فلا تظهر هذه العواطف لأي أحد؛ بل لخواصها من النساء اللاتي بدورهن ينكرن عليها هذه المشاعر، وتلك العواطف، إذ يرين خديجة لا ينبغي لها الانسياق وراء هذا، وتكرر هذا الإنكار من النساء وجاء واضحًا كما في صفحة (٢٣٣).

ويظل طه حسين يقدم خديجة في صورة الشخصية التي تتبع من أعجبت به، حتى وصل إلى التصريح المباشر بحبها له "**كانت تحب هذا الفتى، وحسبك بالحب مثيرًا للخوف والقلق، وباعثًا للجزع والفزع، وحائلًا بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان**"(٧٤)، لقد أفاض المؤلف في بيان مشاعر خديجة من حب وإعجاب لشخص الشاب محمد، وكيف أنها وقعت بين أمرين شكلا ضغطًا نفسيًا عليها، إذ كانت تعاني أشد المعاناة في الرجوع إلى شخصيتها التي عرفت بها، وألفها الناس بها "**فلما رأته تمالكت في شيء من الجهد غير قليل، حتى كبحت عواطفها الثائرة، وضبطت خواطرها الجامحة، وردت لنفسها وروحها من الهدوء والسكون إلى ما تعودت أن تلقى به خادمها الوفي**"(٧٥).

إن هذه العواطف والمشاعر التي أبرزها طه حسين في وصف شخصية خديجة؛ كانت الملمح الأوضح في تقديمه لها، فبين تلك المعاناة النفسية التي تعانيها خديجة بين حبها الجارف للفتى السيد الكريم، ورغبتها في ألا يراها الآخرون على وجه لم يألفوها عليه، أو تخرج عن الصورة التي كوّنها المجتمع المكي عنها.

ويصل السارد في بنائه لشخصية خديجة إلى نهاية المطاف، حين تناول رغبتها (وقرارها) الزواج من محمد، فينقل لنا خبيئة نفسها "**ولم يحس قلب خديجة قبل ذلك اليوم سرورًا مثل هذا السرور الذي تجده، ولم يشرق وجه خديجة قبل ذلك اليوم كهذا الإشراق الذي يشهده ميسرة، فيمتلئ قلبه به إعجابًا يكاد يكون فتونًا، ولكن خديجة تملك نفسها وتضبط أمرها**"(٧٦)، ونلاحظ في كل وصف قدمه طه حسين لشخصية خديجة، تجاور المعنيين معًا؛ فهي من جهة شغوفة بمحمد وتتابع أخباره، ومحبة له ومعجبة

٧٣ – على هامش السيرة: ص ص ٢٢٩ + ٢٣٠.

٧٤ – على هامش السيرة: ص٢٣٧.

٧٥ – على هامش السيرة: ص٢٣٩.

٧٦ – على هامش السيرة: ص٤٦.

بشخصه، ومن جهة أخرى هي شخصية عاقلة حازمة، لا يصدر منها ما يشين، وقد التزم طه حسين في هذا الجانب ما ورد في ترجمة خديجة في الطبقات وغيرها، لذا نجد تكررًا في وصف شخصيتها بالحزم، وأنها تقدر على ضبط نفسها، ومالكة لزمام عواطفها، فلا تخرج عن طور الحكمة وحد العقل، مع مبالغة طه حسين في إظهار عظيم حبها للنبي عليه الصلاة والسلام.

ولعل طه حسين أحس بمبالغته في وصف خديجة في هذا الجانب، وأنه عظّم من شغفها بشخص النبي، إذ قد يتبادر إلى ذهن المتلقي أنه أفرط في وصف هذا الحب وهذا الإعجاب، بشكل لا يليق بمكانة السيدة العاقلة الرشيدة خديجة، فرغب طه حسين في كسر هذا المعنى، فنجده في نهاية الفصل يُدخل شخصية ورقة بن نوفل في حديث متخيل مع خديجة، عندما طلبت منه النصح والتوجيه فيما يؤرقها في هذا الشأن، ليضفي على الأمر هالة من الحكمة والتعقل الذي يبعد به عن العواطف الثائرة، والمشاعر الفائرة، حين ينقل في صفحة (٢٤٦) على لسان خديجة "**لا، وإني في ذلك لكثيرة التفكير، أعجب ببعضه وأرثي لبعضه، وأقف من بعضها حائرة بين الإعجاب والرثاء**"، يجعل المؤلف من خديجة شخصية نقية يظهر ما بداخلها على خارجها، فهي ليست خبيثة النفس؛ ولا تنطوي جوانحها على التواء ودخن.

فقد قرأ ورقة بن نوفل ما يضطرم في نفسها، وما ترغب به من الزواج بمحمد إعجابًا به، وحبًا له، فكان أن نصحها "**أقدمي يا ابنة العم على ما تديرين في نفسك، لا تحجمي ولا تترددي فأنت أسعد نساء قريش، بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك ما تتمنين**"[٧٧]، عاد طه حسين بخديجة إلى شخصية المرأة العاقلة، التي تستشير وتأخذ برأي سديد من حكيم مثل ورقة، صاحب العقل والتجارب، وإذا كان وصف حالة الإعجاب وحبها الشديد لمحمد قد ظهر جليًا طوال الفصل؛ فإن ختام الفصل كان منصبًا على إبراز حالة التوازن عند خديجة تجاه الأمر برمته، فلم تسقها عاطفتها، أو يحركها الوجدان بمعزل عن الحكمة والحزم التي اشتهرت بهما.

إن وصف طه حسين لشخصية خديجة كان يميل في أغلبه لبيان الحالة النفسية، تلك التي ملكت على خديجة نفسها تجاه النبي عليه الصلاة السلام، لذا أبرز المؤلف في أكثر من موضع هذه المشاعر، وما استتبعها من سلوكيات وأفعال، واحتاط في نهاية الفصل أن يميل الوصف فتخرج شخصية خديجة أسيرة عواطفها؛ فأعاد لها صفاتها التي أثبتتها كتب التراجم والسير، حيث عرفت بالحكمة والتروي والاتزان العقلي العالي.

ولأجل هذا نرى طه حسين يورد نصًا من كتاب الطبقات في آخر صفحة في الفصل، يروي فيه ابن سعد قصة زواج محمد من خديجة، ويتضمن النص أيضًا قصة بعث خديجة لسيدة تذكرها أمام محمد عليه السلام، أي أنها من سعت في الزواج وبذلت فيه الجهد، وكأن طه حسين يبرر بهذا النص للمتلقي مبالغته في وصف مشاعر خديجة، وأنه في وصفه هذا كان معتمدًا على نصٍ موثق. وبذا نستطيع القول

[٧٧] – على هامش السيرة: ص٢٤٩.

إن تناول شخصية خديجة في كتاب (على هامش السيرة) كان تناولاً نفسيًا بامتياز، ورسم صورة متعمقة لداخلها لم ترد لها في كتب التراجم.

٣. أبو جهل (أبو الحكم عمرو بن هشام)

احتل أبو جهل (عمرو بن هشام) مساحة ليست بالقليلة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث ارتبطت دعوة الإسلام في بدايتها وما تلا ذلك من أعوام بعداوة قريش لها، وكان الرمز البارز لهذه العداوة هو شخصية (عمرو بن هشام)، فقد تزعم لواء حرب هذا الدين الناشئ. وقد تردد ذكر أبي جهل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لفترة طويلة استمرت زهاء أربعة عشر عامًا، وذلك حتى مقتله في غزوة بدرٍ الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، ومع امتداد ذكره طوال هذه السنين؛ فإن كتب السير والتراجم لم تصف أبا جهل بشكل مفصلٍ أبدًا.

بل إن الوصف الجسدي الوحيد الذي ورد له، جاء على لسان العباس بن عبد المطلب، وكان مختصرًا بشكلٍ كبير، رواه ابن هشام في سيرته في معرض حكايته رؤيا عاتكة أخت العباس، تلك الرؤيا التي سبقت غزوة بدر "**وكان رجلً خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر**"[٧٨]، لقد ركزت كتب السير في ذكرها لشخصية أبي جهل على علاقته بالإسلام وعداوته له ولشخص النبي عليه الصلاة والسلام، وما أقامه من حرب على هذا الدين وهو ما زال بعد في طور التأسيس، وما نال النبي من إيذاء وشتم.

فكانت السمة الأبرز التي وردت في كتب السير جميعًا – أو على الأقل تلك التي رجع إليها طه حسين؛ هي عداوته للإسلام ولدده في خصومة النبي، ولجّه في تلك العداوة بغيًا وحسدًا، وأبرزت كتب السير هذه الصفة في شخصية أبي جهل من خلال بيان كل ما أسهم فيه من أحداث قبل الهجرة وبعدها، مع خلو كتب السيرة من ذكر أبي جهل قبل ذلك، فلا نعرف عنه شيئًا غير نسبه وقبيلته، ومواقف نادرة لا تقيم وصفًا متكاملاً لشخصية.

وكان لطه حسين رؤية فنية مختلفة؛ حين قدم شخصية أبا جهل بشكل يختلف عن الشخصية التاريخية المعروفة، فقد احتل أبو جهل وبيان شخصيته فصلاً طويلاً في بداية الجزء الثالث، امتد من صفحة (٢٨٥) وحتى صفحة (٣٤٢)، وكان عنوانه (صريع الحسد). تتطرق فيه المؤلف بداية لصفاته الجسدية "**وكان ابن أخيه عمرو بن هشام في ذلك اليوم فتى قويًا نحيفًا، شديد النشاط كثير الحركة، لبقًا في كل ما يصدر عن جسمه، رائعًا في كل ما يصدر عن عينيه القويتين البراقتين، وكان على وجه الفتى دائمًا – وفي ذلك اليوم خاصة –غشاء غريب فيه عبوس يصور الجد المر، وفيه ابتسام يصور**

---

[٧٨] – أبو محمد عبدالملك بن هشام: السيرة النبوية، علق عليها (عمر عبدالسلام تدمري)، ط٣، دار الكتاب العربي، لبنان ١٩٩٠، جـ٢، ص٢٥٢.

الدعابة الحلوة"[٧٩]. لقد اعتمد طه حسين على سطر واحد ورد فيه وصف أبي جهل وأنه كان حاد العينين؛ دقيق الملامح؛ حاد اللسان، ليقدمه هو بعد ذلك بأسلوب فني بديع فيجعله نشيطًا متوثبًا، براق العينين، لبقًا ورشيق الحركة كذلك، والأهم من ذلك روحه الجميلة التي تميل إلى الدعابة والرفق بالجواري والعبيد – وكل من هو مستضعف؛ فكانوا يقبلون عليه وينشطون له.

وقدم المؤلف هذه الشخصية بشكل يبين سيادته ومكانته بين قومه، ففي صفحة (٢٨٦) يقول: "**كان كل شيء في هذا الفتى يصور رجلاً شديد الطموح بعيد الأمل، واسع الرجاء، ولكن الأسباب تقطعت به فهو غير راضٍ عن نفسه، ولاعن من حوله من لناس، ولا عما حوله من الأشياء**"، لقد أمعن طه حسين في وصف سؤدد عمرو بن هشام، ووفرة شبابه وشدة ثرائه، وأن أترابه من الشباب يحسدونه على وضعه ومكانته، ولعل المبالغة والتكرار في هذا الأوصاف كان تهيئة وتمهيدًا لما هو آت من عداوة استعرت جذوتها في قلب أبي جهل تجاه الدين الجديد، وكذلك ضد النبي عليه الصلاة والسلام على وجه الخصوص، لأنه الرجل الذي سيسحب البساط من تحت قدمه، ويسلبه عزًا وشرفًا كان يرى أنه يستحقه بدلاً منه.

كما جعل طه حسين من أبي جهل شخصية تنكر أفعال قريش، وتقاليد درجوا عليها "**فأنت إذاً ساخط دائمًا، منكر للمألوف من عادات قومك وأوضاعهم دائمًا ... ولست أدري إلى أين تنتهي بنا الأوضاع التي تفرضها قريش على عقولنا وقلوبنا وأجسامنا، فنحن لا نستطيع أن نفكر ولا أن نشعر ولا أن نتحرك إلا على النحو الذي رسمته قريش للتفكير والشعور والحركة**"[٨٠]، إن أبا جهل في الصورة السابقة يأتي فصيح اللسان، راجح العقل متزنه، فهو يجادل عمه الوليد بن المغيرة، ويقارعه الحجة بالحجة؛ وهذه صفة واضحة في طول الفصل وعرضه.

حيث يمتلك أبو جهل من قوة المنطق وفصاحة اللسان ما يؤهله لذلك، وهو الأمر الذي خالف فيه طه حسين كتب السيرة التي صورت أبا جهل رجلاً مندفعًا غشومًا تغلبه عداوته وتهوره. كما أن طه حسين قد صور أبا جهل كذلك شخصيةً متمردةً وساخطةً على عرف قريش في ظلم الضعفاء والعبيد، بل وفي عبادتها للأصنام، واستئثارها دون العرب بأشياء تضمن لهم السيادة؛ وهم ليسوا أهلاً لها. وهو ملمح آخر يرسمه المؤلف له ولم يرد عن أبي جهل في الواقع التاريخي المدون في كتب السيرة.

كما أن طه حسين تفرد أيضًا في وصفه لشخصية عمرو بن هشام بملمح جديد، لم يُعرف عن أبي جهل من قبل، فقد قدمه في صورة الرجل النهم للمعرفة، التواق إلى العلم والحقيقة، والباحث عنها كذلك. حيث نراه ساعيًا ومختلفًا إلى ورقة بن نوفل لينهل من علمه؛ ويطارحه الأفكار؛ عندما جعلهما المؤلف متشابهين في الإنكار على أهل مكة أفعالهم وأفكارهم وعبادتهم للحجارة وظلمهم للمستضعفين. ومثل هذا

---

٧٩ – على هامش السيرة: ص٢٨٥.

٨٠ – على هامش السيرة: ص٢٨٧.

الحال؛ ما نراه من غدوٍ ورواحٍ لأبي جهل إلى نسطاس الرومي (ساقي الحان) فيتبادلان الأحاديث، حول اقتراب حدث عظيم سيغير العالم والتاريخ، فها هو يحادث ورقة "**قال الشيخ: فماذا جئت تلتمس عندي إذاً؟ قال الفتى: جئت أتعلم منك، وأرى أنك ستتعلم مني، قال الشيخ وقد عاد إلى نشاطه وخفته: فعلمني يا عمرو فإن الإنسان لا يكبر عن العلم، مهما تبلغ به السن، وإن العصا قرعت لذي الحلم**"(٨١).

ورد هذا الحديث بين أبي جهل وورقة بن نوفل، وقد كان يسبقه ويلحقه كذلك حوار طويل بينهما؛ يتبادلان من خلاله الأخبار عن الروم في مكة، وأحوال قريش وأنبائها، وهو ملمح يركز عليه طه حسين في أكثر من نصف الفصل، ليبين أن أبا جهل كان يحب العلم وينهل من المعرفة، ويسعى لمعرفة الحقيقة، وأن له جذور صداقة ممتدة مع ورقة بن نوفل؛ وهو الأمر الذي لم يثبته كتاب من كتب التاريخ والسيرة.

وثمة وصف آخر أكد عليه طه حسين في شخصية أبي جهل، حين وضح سبب العداوة المتأصلة في نفسه تجاه الإسلام، وأنها نابعة من الحسد الذي يأكل قلبه، والحقد الذي غلف روحه، بل وجعل من آخر كلمات الفصل مؤكدة لهذا الوصف، ففي صفحة (٣٤١) يقرر عن عكرمة "**أما أبوه فقد صرعه الحسد والبغي، أما هو فقد صرعه الجهاد في ذات الله**". ومن صفحة (٣٠٤) حتى صفحة (٣٠٧) نرى تأكيد المؤلف على هذه الصفة بالتحديد، والتي تدفعه دفعًا لمعاداة النبي بشكل شخصي "**قال عمرو بن هشام: وأقسم ما أبغضت إنسانًا قد كما أبغضت الأمين، وما آذاني شيء قط كما تؤذيني قريش حين تعظمه وتعظم من أمر بني عبد المطلب ما تعظم**"(٨٢)، جعل طه حسين صفة الحسد والحقد أمرًا ظاهرًا بارزًا للعيان؛ فلا يخفى على أحد من أترابه وأقرانه إذ يحسونه ويلمسونه ظاهرًا، حتى نسطاس الرومي(ساقي الحان) عرف ذلك عنه، فقال عنه أنه "**فتى طموح شديد الطموح، مغرور يكاد يقتله الغرور، حسود يأكل الحسد قلبه كما تأكل النار الحطب، وهو على ذلك ذكي القلب فصيح اللسان، أثير عند قومه**"(٨٣).

وقد ردَّ طه حسين سبب هذا الحسد الذي يفيض من قلب أبي جهل؛ إلى ذلك الحدث الذي وقع بينه وبين النبي وهما بعد في مطلع الصبا، حين تزاحما على مأدبة لعبدالله بن جدعان، فوقع أبو جهل على ركبته وظل أثر الوقعة باديًا في ركبته، تتجدد العداوة ويزيد الحسد كلما رأى أبو جهل هذا الأثر. ولا يمكن أن نغفل السبب المهم الآخر، وهو ما يحسه من ألم جراء تعظيم قريش لبني هاشم عامة ولمحمد خاصة، وذكره بالخير في نوادي قريش كلها، وهو ما يهدد سيادة أبي جهل المستقبلية.

---

٨١ – على هامش السيرة: ص٣٠٤.

٨٢ – على هامش السيرة: ص٢٩٥.

٨٣ – على هامش السيرة: ص٣٠٧.

وأضاف طه حسين إضافة جديدة في تقديمه لشخصية أبي جهل، حيث أوجد علاقة ظاهرة بينه وبين الشيطان، عندما جسّد إبليس في صورة رجل أعرابي؛ أطلق عليه كنيته المعرفة عند العرب (أبو مرة)، وجعله يتبدى لأبي جهل فيراه هو وحده دون بقية الناس، وجعلهما يتنادمان ويتطارحان الشراب، ويسمران ليلاً يشربان؛ ويؤزه الشيطان ويوسوس له، راسمًا له كل خطوة يخطوها، ويبين له منهجه في التعامل مع هذا الدين الجديد ونبيه وأتباعه، فقد "**عرض له في بعض الطريق شيخ أعرابي حسن الوجه، رائق المنظر، لولا أنه كان غليظ الزي خشن الثياب، يكاد يبدو عليه الضر، لولا أنه يتجمل ويروض نفسه**"(٨٤)، وقد سلم له أبو جهل زمام نفسه، فأصبح ألعوبة في يده، يحركه الشيطان كيف يشاء، راسمًا له طرقًا عديدة توصله إلى قيادة قريش وحمل لواء معاداتها وحربها الجديدة تجاه الدعوة الناشئة، وكيف يستطيع أبو جهل أن يلم قريشًا تحت قيادته، كل ذلك جعله طه حسين صادرًا من شخصية (أبو مرة) وعلاقتها بأبي جهل.

وخلاصة وصف طه حسين لشخصية أبي جهل؛ أن الصورة الناتجة عن المتخيل السردي له تبتعد كثيرًا – وتقترب أحيانًا – من الشخصية التاريخية المثبتة في كتب السيرة والتاريخ، فقد جعل منه فتى مرموق المكانة في قريش، ذا سؤدد وأنفة وكبرياء، وصاحب مال عريض واسع، وهو وصف صحيح – من الناحية التاريخية – لهذه الشخصية.

ولكن طه حسين كذلك جعل منه شخصية محبة للعلم تسعى وراء المعرفة، وشخصًا يصاحب الحكماء ويبحث عن الحق، ناعيًا على قومه بعض معتقدهم وأفكارهم وعاداتهم. وهو أمرٌ غير صحيح – على الأقل تاريخيًا – بالمرة؛ إذ لم يثبت عن أبي جهل مثل هذا التوجه ولا هذا السعي، كما اتفق طه حسين مع كتب السيرة في أن المحرك الأساسي لعداوة ابي جهل للإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم كان حسده له، وحقده عليه، وهو ما صرح به أبو جهل أكثر من مرة في المرويات التاريخية المثبتة.

وجاء أسلوب طه حسين في وصف شخصية أبي جهل سهلاً واضحًا، عبر ضمير الغائب، ولم يحد عن استخدام هذا الضمير الذي يمثل الراوي كلي العلم، واستطاع السارد من خلال تقنية الراوي بضمير الغائب أن يسبر غور نفس أبي جهل، ويخرج مكنونات مشاعره، وما يكنه من عميق الحقد والحسد، وكذا أفكاره وما تحمله من تناقض وتذبذب.

وعبر المؤلف كذلك عن هذه الأفكار والمشاعر في صفحات كثيرة في الفصل؛ من خلال تقنية الحوار بين شخصية أبي جهل وأطراف كثيرة تمثلها شخصيات حقيقية وأخرى مبتكرة؛ مثل: عمه الوليد بن المغيرة – نسطاس الرومي – الشيطان الذي يمثله أبو مرة – أصدقاؤه من فتيان مكة، وشكلت هذه الحوارات جزءًا مهمًا من صورة شخصيته السردية التي رسمها طه حسين، وهي في مجملها شخصية لا تتطابق والصورة التي روتها وأثبتتها كتب السيرة والتاريخ.

---

٨٤ – على هامش السيرة: ص٣١٣.

٤. آمنة بنت وهب

لم ترد في كتب السيرة أو الطبقات أي أوصاف خاصة بآمنة، ففي الفصل الذي عقده لها ابن سعد في طبقاته نرى عنونًا طويلاً (ذكر تزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وذكر في هذا الفصل نسبها من ناحية أبيها وأمها، وقصة خطبتها لعبدالله، ومن ذهب في هذه الخطبة، وكيف أن عبد المطلب عقد على أختها هالة لنفسه في ذات الجلسة، قال ابن سعد "**لما تزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب أقام عندها ثلاثًا، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها**"[٨٥]، وذكر ابن سعد بعد ذلك ما كان من أمر حملها بالنبي، وما رأت من إرهاصات ورؤى، وكيف كان حملها ووضعها، منهيًا الباب بذكر موتها بالأبواء وعمر النبي ست سنوات.[٨٦]

ولكن طه حسين يتفنن في رسم هذه الشخصية، ويطلق العنان للمتخيل السردي ليصف شخصية آمنة وصفًا نفسيًا واضح المعالم. فهي ذات عقلية راجحة وعاطفة متزنة كما قدمها، وجعل منها امرأة صبورًا هادئة النفس، راضية "**ثم كفكفت عبرة كانت تريد أن تنهمر، وردت إلى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات والهدوء، وقالت وهي تبتسم في كثير من التجلد والصبر...** "[٨٧]. والحقيقة أن طه حسين قد بنى شخصية آمنة على صفتين أساسيتين طوال حديثه عنها وتقديمه لها، فأول هاتين الصفتين قوة تحملها للخطوب؛ ورضاها بالنوازل، وتقبلها للمدلهمات بشيء من الجلد والهدوء، وجعل من آمنة مثلاً يحتذى في التحمل وتقبل المصائب دون جزع ولا اضطراب.

وأظهر السارد هذه الصفة الأولى في مواقف عدة؛ منها: حين تقبلت خروج زوجها عبدالله في رحلة الشام للتجارة ولما يقض معها مدة طويلة بعد زواجهما، وفي موقفٍ ثانٍ حين أتاها الناعي يحمل خبر موت زوجها في يثرب، ولكن هذا النوازل قد تركت أثرها في نفسها كما نرى في صفحة (١١٥) من أنها لا تشارك "**نساء قريش فيما كن يتخذن من زينة، وينصرفن إليه من لذات الحياة، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب في الخلوة إلى نفسها، تتحدث إليها وتسمع منها. لا تجد في هذا الحديث حزنًا صريحًا ولا سرورًا صريحًا، وإنما شيء بين بين**".

وثاني هاتين الصفتين اللتين ركز عليهما طه حسين في شخصية آمنة؛ شعورها بأنها مميزة، وأن حملها المستكن في أحشائها سيكون له شأن عظيم في قابل الأيام، لقد عظّم طه حسين من الصفة وهذا الشعور داخل آمنة، ونقل لنا هذه الأحاسيس مرة بعد مرة، وأظهر لنا ما تحمله نفسها من اطمئنان وسكينة، وتقبل لا حد له لجنينها المختلف "**ولم تشك آمنة في أن الأحلام لم تكذبها، وإذاً فممتازة هي من بين النساء، يألمن ويشكون ويضقن بكل شيء ... وهي لا تألم ولا تشكو، وهي لا تضيق ولا تزهد ولا**

---

٨٥ – كتاب الطبقات: جـ١، ص٧٥.

٨٦ – انظر: المصدر السابق، جـ ١، ص٧٥ وما بعدها.

٨٧ – على هامش السيرة: ص٤٨.

تجد ثقلاً"[٨٨]، ويورد طه حسين في ذات الصفحة تلك الأحلام التي تراودها ليلاً، مؤكدًا سعادتها البالغة بما تحس وترى، وكيف أن روحها نشيطة متوثبة، وأن إحساسها بعظم ما تحمل قد طغى على حزنها وألمها، وكانت "**تستحضر في اليقظة ما كانت تبتهج به أثناء النوم، ولكنها قرشية تعرف كيف تملك نفسها، وتضبط أهواءها، وتلقى الناس بمثل ما كانت تلقاهم به من البشر الهادئ البريء من الإسراف في الاستئناس أو الابتهاج"**[٨٩].

كانت هاتين الصفتين هما الأبرز في بناء المؤلف لشخصية آمنة، كما أكد في أكثر من موضع على حالة الاستشراف المستقبلي من قِبل هذه الشخصية، فكانت في حالات كثيرة تبدي الرضا والقبول للشدائد والنوازل؛ لأنها تؤمن تمامًا بأن المستقبل يحمل لها ولجنينها خيرًا وبشرى، وأمرًا لم يتح لأحد من البشر قاطبة.

كان تناول طه حسين لشخصية آمنة بنت وهب تناولاً جديدًا وظريفًا، إذ نراه يركز على الجانب الشعوري والنفسي؛ وكذلك نقل بعض الأفكار التي انتابتها، فقد وظف تقنية الراوي الغائب (كلي العلم) ليبسط أمامنا دخيلة نفسها، وبعض تأملاتها، لتستوي أمامنا شخصية آمنة في صورة ذهنية مقبولة ومتخيلة، صورة مليئة بالرضا والاستسلام، تلك الشخصية التي تحمل سكينة واطمئنانًا بين الجوانح، شخصية تستشرف المستقبل فتراه يفيض بالخير والسرور؛ مع قدوم طفلها الذي تأكدت وأيقنت من تميزه عن باقي البشر.

٥. مجموعة الصحابة (حمزة – مصعب – جعفر – زيد)

أورد طه حسين في نهاية الجزء الثالث مجموعة من الصحابة، أفرد كل صحابي منهم بفصل مستقل، وعنون الفصل بالصفة الأشهر لكل واحد من هؤلاء الصحابة، فحمزة هو (سيد الشهداء)، بينما جعفر (ذو الجناحين)، ونرى فصل زيد تحت عنوان (شوق الحبيب إلى الحبيب)، وأخيرًا فإن عنوان الفصل الذي قُدمت فيه شخصية مصعب كان يحمل اسمه كاملاً (مصعب بن عمير) دون صفة معينة. وتبدو دلالة هذه الصفات واضحة للمتلقي حين يرى بعد ذلك بناء الشخصية من قِبل طه حسين يدور حول هذه الصفة بشكل أكبر من غيرها، وتصبح هي النقطة الأبرز في رسمه لهذه الشخصية.

وسنجد بالطبع ترجمةً وسيرة لكل صحابي من الصحابة السابق ذكرهم في كتب الطبقات والتراجم، وأولها الكتاب العمدة عند طه حسين وهو كتاب الطبقات الذي كان تكأة رئيسية له، وكان المصدر التاريخي لكتابه، إذ قدم ابن سعد في طبقاته ترجمة منفصلة لكل واحد من هؤلاء الأربعة. وأول هؤلاء الصحابة الذين تناولهم طه حسين؛ حمزة بن عبد المطلب الذي سنجد ترجمته في الجزء الثالث من الطبقات، ويأتي اسمه مباشرة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم في الطبقة الأولى من البدريين.

---

٨٨ – على هامش السيرة: ص٥٥.

٨٩ – على هامش السيرة: ص٥٥.

وقد أوضح ابن سعد نسب حمزة ونشأته وزوجاته وبنيه، ثم عرج على قصة إسلامه ودفاعه عن الإسلام بعد ذلك في المرحلة المكية ضد بغي قريش وعدوانها، ذاكرًا بلاءه العظيم في نصرة الإسلام قبل بدر وبعدها، حتى استشهاده على يدِّ وحشي في أحد؛ وذكر المثلة التي أوقعتها هند بجسده الطاهر؛ وحزن النبي الممض عليه. وذكر ابن سعد في ترجمته كذلك قوله عن نفسه وهو يصول ويجول في بدر: أنا أسد الله، وكذلك وصف النبي له حين وقف أمامه وهو صريع في أحد أنه كان وصولاً للرحم فعولاً للخيرات.(٩٠)

ولقد لخص طه حسين في مطلع وصفه لحمزة هذه الصفات كلها، ففي الفقرة الأولى نجد "**رحم الله حمزة، إن كان لسيد الشهداء حقًا، وإن كانت حياته لموضع العبرة والموعظة البالغة، كان إسلامه عنيفًا، وكان بلاؤه في الإسلام عنيفًا، وكان مصرعه في الله عنيفًا، وكان ما ترك من حزن عليه ووجد به وحبٍ له عنيفًا أيضًا، وماذا تقولون في أنه لم يبلغ حزن من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغه الحزن على حمزة**"(٩١)، إن تناول طه حسين لشخصية حمزة قد وضع له رسمًا مميزًا، فقد جعل منه فتى قريش الأول، وفتى بني هاشم القوي، الذي تهابه السباع بله الناس، وذلك الشاب الذي يقتنص الحيوانات صيدًا واللذات اغتنامًا. وبوصف طه حسين لحياة حمزة بهذا الشكل القوي المنفتح فإنه قد جعل منه المعادل الطبيعي لأبي جهل بتجبره وعنفوانه وظلمه للمسلمين المستضعفين؛ وشخص النبي كذلك.

وكانت الصفة الأبرز التي ركز عليها المؤلف في شخصية حمزة؛ هي توجيهه قوته وشجاعته لنصرة المستضعفين من المسلمين، في وقت كان الإسلام محتاجًا لحمزة ومن هم على شاكلته من القوة والمهابة في نظر المشركين، الذين لا يفهمون إلا لغة القوة "**كان فتى من فتيان قريش، فيه عنفها وفيه شدتها، وفيه صلفها، وفيه أنفتها، وفيه حرصها، وفيه إيثارها لهذه اللذات التي يؤثرها أصحاب المروءة والرجولة الكاملة، كان صاحب صيد وقنص، يخرج للذته هذه آخر الليل**"(٩٢). لقد جعل طه حسين من شخصية حمزة – من خلال بنائها – مرادفة للعزة التي أحسها المسلمون منذ إسلامه، وصورة للقوة التي تمتع بها الإسلام بعد اعتناق حمزة له، واستند طه حسين على هذه الأوصاف في تثبيت هذا المعنى، فكررها مرة بعد مرة، ليبرهن على أن حمزة مستحقٌ لوصف (سيد الشهداء) عن جدارة بما قدمه للإسلام والمسلمين، ففي صفحة (٣٤٨) يقول: "**إن بين هؤلاء الشهداء سيدهم حمزة، قاتل شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، الذي صرعه وحشي وبقرت بطنه ولاكت كبده هند**".

لم يتطرق طه حسين إلى وصف جسدي أو عاطفي واحد لشخصية حمزة، كما أن ما ورد في كتب الطبقات والسيرة لا يتعدى إلى ذلك أيضًا، وبذا يكون قد اتفق معهم في بيان الصفة الأهم وهي حسن

٩٠ – انظر: كتاب الطبقات، جـ٣، ص٧ وما بعدها.

٩١ – على هامش السيرة: ص٣٤٥.

٩٢ – على هامش السيرة: ص٣٤٧.

بلائه وخدمته للإسلام، وشعور العزة الذي منحه للمستضعفين أمام جلاديهم، فجعل منه بطلاً يهابه المشركون المنتفشون بقوة زائفة، حتى أبو جهل يخشاه وهو من هو في عداوته ولدده في الخصام، فحين يصف طه حسين حادثة ضرب حمزة لأبي جهل ، رسم شخصية حمزة في صورة بطولية اعتدل بها الميزان المائل، وعلا من خلاله الصوت المخذول "**يكفهم عنه أبو جهل فرقًا وخزيًا، وإشفاقًا أن يتكشف الحق، ويظهر ما خفي من موقفه المريب، وإن زعمت بنو مخزوم أنه يكفهم عنه إيثارًا للعافية وإنصافًا من نفسه**"(٩٣).

ويتبقى الفارق هو ذلك الأسلوب الفني الذي قدم من خلال طه حسين هذه المعاني؛ إذ عظّم من هذه الصفات وأبانها، فجعل المتلقي يتلقاها بقلبه، فيفرح عندما يرى عزة المسلمين بعد هوانهم، ويحزن ساعة أن تخترق حربة الغدر قلب حمزة أسد الله. وقد قدم طه حسين شخصية حمزة وما صاحبها تقديمها من أحداث؛ عن طريق شخصية مبتكرة، جسدها شيخ من حاشية أمير، وجعل منه شيخًا هرمًا تقدمت به السنون، سمع هذا الشيخ الحاشية يتكلمون عن حمزة وبطولاته، فبدأ يحكي مشاهداته في بدر وأحد، ومن قبل ذلك ما رأه يوم أسلم حمزة، وقد استعان طه حسين بهذه الشخصية لتقديم الأحداث في إطار حكائي سردي يظهر بناء شخصية حمزة، وما تمتعت به من قوة وشجاعة، وما قدمته من نصرة لله ورسوله، وكذلك اختتامه الحياة بالشهادة في سبيل الله.

أما شخصية (مصعب بن عمير) فقد وردت كذلك في الجزء الثالث من الطبقات، وترجم له ابن سعد تحت عنوان (مصعب الخير)، وأوردت الترجمة نسبه ونشأته، وأنه كان "**فتى مكة شبابًا وجمالاً وسبيًا، وكان أبواه يحبانه وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره**"(٩٤)، ثم تمضي الترجمة فتذكر إسلامه، وما حدث له من تبدل في الحال، فأصبح خشن الملبس والمأكل بعدما كان فتى قريش المرفه المنعم، ونهاية بموته وعدم وجود كفن له، وما كان من بكاء النبي رحمة وشفقة لهذا الفتى الذي ترك متع الدنيا حسبة لله.

ولم يبعد طه حسين كثيرًا عن هذا الوصف، ولكنه قدم الفصل باسمه الحقيقي لا (مصعب الخير) كما قدمه ابن سعد في طبقاته، وقد كسا طه حسين بأسلوبه الفني صفات مصعب كثيرًا من الرقة والرشاقة، ولكن جوهر الصفات يتحد مع ماورد عنه في كتب التراجم، فقد كان "**غض الشباب، معتدل الخلق، ناضر الوجه، مشرق الجبين، وكان عذب الصوت حلو الحديث، لا تكاد تقع عليه العين حتى تهواه النفس، ولا يكاد يقع في الأذن حتى يصبو إليه القلب، وكان حسن الزي معنيًا بثيابه وشكله عناية ظاهرة، لا يكاد الرائي يراه حتى يعلم أن له حظًا من نعمة، وفضلاً من يسار، وكان طيب**

٩٣ – على هامش السيرة: ص٣٤٨.

٩٤ – انظر: كتاب الطبقات، جـ٣، ص١٠٧ وما بعدها.

النشر"[٩٥]. إن وصف شخصية مصعب في كتاب (على هامش السيرة) تكاد تتطابق مع ما ورد عنه في كتب الأقدمين، ليظل الفارق هو أسلوب طه حسين السردي الذي جعل من مصعب شخصية منعمة ومرفهة، وشخصًا يمتلك حضورًا كبيرًا، وصاحب هالة مؤثرة في وسط أقرانه والمجتمع من حوله.

وقد استغرق طه حسين في تثبيت هذه الأوصاف مساحة كبيرة من الفصل، ليمهد من خلالها للمفارقة التي سيرسمها في صورة لاحقة، إذ يجد المتلقي أمامه رسمًا مغايرًا لمصعب حين تغضب عليه أمه عندما علمت بإسلامه، فمنعت عنه أسباب النعيم وحياة الرفاهية، فتبدل حال الفتي إلى الخشونة والبؤس، وحتى عند تكفينه سيجد المتلقي تأصيلاً لهذه الصورة إذ لا يجد القوم كفنًا لمصعب بن عمير، الذي كان عطره يسبقه في أندية مكة وشوارعها. ولتثبيت الصورة المناقضة سنجد تكررًا لألفاظ معينة في تقديم طه حسين لشخصية مصعب مثل: (الفتى – الوسيم – الغني – المنعم ... إلخ)، وقد أفاض طه حسين في بيان تبدل حال شخصية مصعب من التنعم للشقاء والمعاناة، مثل صفحة (٣٧٠) حين يصف حاله "**وما أسرع ما تنكر له أبواه وما أسرع ما مسه الضر، وثقل عليه احتمال الحياة، هنالك أصبح الفتى السعيد كغيره من أصحابه، فقيرًا بائسًا، ولكنه كغيره صبورًا جلدًا**".

كما يتعرض طه حسين بإيجاز لهجرة مصعب إلى الحبشة، ومحاولات أمه لرده عن هذا الدين الجديد، وثباته على موقفه ودينه. حتى يرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب كأول سفير لهذا الدين الناشئ، لينشر مبادئ الدين الحنيف ويضم إليه أتباعًا جددًا. ويصل طه حسين إلى غزوتي بدر واحد، ليعرض قصة مقتله على يدِ ابن قمئة، الذي ظن أنه محمد عليه السلام لشبهه القوي به، وقد حمل مصعب الراية يومئذٍ، حتى خرّ صريعًا.

ونلاحظ التطابق التام بين أوصاف مصعب بين طه حسين وكتب التراجم والسيرة، فقد اتفقت أوصاف الشخصية في جوهرها ومعناها، واختلفت طريقة مبناها والتعبير عنها. فأسلوب طه حسين سلس تغلب عليه النزعة الأدبية لا التوثيقية، تلك النزعة المثيرة للعواطف، المحركة للوجدان، كما أن الطرفين قد اتفقا أيضًا في الصفات الخلقية والخُلقية على حدٍ سواء.

ولذلك نرى في هذا الفصل بعضًا من الاقتباسات، والإحالات على طبقات ابن سعد، فكان تصرف طه حسين في شخصية مصعب بن عمير قليلاً، ولم يحدّ إلا قليلاً عما ورد عنه في الترجمة، فدار في فلك هذه الصفات التي رويت عنه، ولم يحاول استشفاف ما بداخل نفسه، أو نقل أفكاره ومشاعره، واقتصر على الأحداث وما يلزمها من وصف للشخصية دون كثير تفصيل للعاطفة أو الفكر.

وقد يرجع عدم تصرف طه حسين كثيرًا في شخصية مصعب إلى المفارقة القائمة في حياته، والتي أثبتتها كتب السير والتاريخ، إذ تقوم حياته على التضحية الظاهرة وانتقاله من حياة الدعة واللين والتنعم إلى عكس ذلك كله، فكانت عبارة عن صورة مثيرة مليئة بالتعاطف والإعجاب في آن واحد، ولقد أثبتت

٩٥ – على هامش السيرة: ص٣٦٧.

المراجع تفاصيل هذه المفارقة الحياتية لمصعب بشكل مفصل، مما قد يغني عن الجانب التخييلي الذي انتهجه طه حسين في تقديم حياة شخصياته.

وعن ثالث الشخصيات (ذو الجناحين) جعفر بن أبي طالب، فقد أورد ابن سعد ترجمته في الجزء الرابع من طبقاته، تحت عنوان (الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار)، وكان ترتيبه الثاني بعد عمه العباس. وكما هو معتاد فقد بدأ بنسبه من ناحية أبيه وأمه، وذكر إسلامه قديمًا، ثم هجرته مع السابقين الأولين إلى الحبشة، وتوليه قيادة المسلمين هناك، ثم عودته مع فتح خيبر وسرور النبي العظيم به، وانتهى ابن سعد في عرضه ببيان فضله عندما ولاه النبي القيادة في معركة مؤتة خلفًا لزيد بن حارثة، واستشهاده بطريقة مروعة تسببت في قطع يديه قبل أن تفيض روحه لبارئها، ويهمنا في هذا العرض السريع ما ورد عند ابن سعد عن جعفر، أن النبي كان يقول لجعفر: أشبه خلقك خلقي، وأشبه خُلقك خُلقي، فأنت مني ومن شجرتي. وفي موضع آخر: أشبهت خلقي وخُلقي.[٩٦]

ولكن طه حسين أورد تقديمًا لشخصية جعفر من خلال المتخيل السردي بشكل مميز، على لسان شخصية رمز لها بشيخ هرم فيروي الحكاية لفتاة كانت تغني له، وأكد هذا الشيخ أنه كان مصاحبًا لجعفر في كل مراحل حياته، مما يجعل منه راويًا راصدًا، فبدأ بقوله "**لقد صحبت فتى من قريش فيما مضى من سالف الدهر، ما أُنسيت صحبته قط، أردت أن أؤنسه فكان هو مؤنسًا لي، وأردت أن أسلي عنه الهم، فلم أجد في نفسه همًا أسليه عنه ... كانت نفسه حلوة هادئة، فأبت أن تمزج حلاوة الإيمان بمرارة الفتنة، وأن تخلط هدوء اليقين بعنف الجدال فيه**"[٩٧]، لقد أخذ طه حين على لسان هذه الشخصية المخترعة يورد أوصافًا لجعفر ويرسم شخصيته، فهو ذو طباع محمودة، وذو شخصية قيادية محبة للتضحية في سبيل الله، وكيف أنه آثر الهجرة ونشر دين الله على حب الوطن – وإنه عنده لغالٍ.

وجعل طه حسين من هذه الشخصية المبتكرة تنقل لنا ما شاهده من إيمان وحب للجهاد عند جعفر، اعتمادًا على معرفته الأكيدة له، تكاد تصل لمعرفة ما يدور داخله، كما نرى في صفحة (٣٥٦) حين يقول الشيخ: "**فصحبت مؤمنًا يفر بإيمانه إلى الطمأنينة وفي نفسه حسرات، ولقد صحبته في عودته إلى المدينة فصحبت مؤمنًا مستقر الهدى ومشرق النور، وإن في قلبه لجذوة تضطرم شوقًا إلى ابن عمه، وطموحًا إلى الأخذ بحظه من أثقال الجهاد**"، وتصرح هذه الشخصية بمعرفته الوثيقة بجعفر مما يؤهله لنقل دخيلة نفسه، ومعرفة ما يدور في وجدانه، ففي ذات الصفحة يؤكد "**لقد عرفت دخيلة نفسه، وسمعت نجوى ضميره بعد هذا الحديث، إنما كان الشوق إلى حسن البلاء، واحتمال أثقال الجهاد هو الذي دعاه إلى أن يعاتب النبي في تقديم زيد عليه**".

---

٩٦ – انظر: كتاب الطبقات، جـ٤، ص٣٠ وما بعدها. وورد قول النبي لجعفر بأنه يشبهه في ذات الجزء ص٣٣.

٩٧ – على هامش السيرة: ص٣٥٥.

إن شخصية جعفر بن أبي طالب كما قدمها طه حسين تلتقي في العموم مع ما ورد عنه في ترجمته في السيرة، فهو ذو خلق رفيع، وشخصية فذة مؤثرة؛ قيادية، وأنه أشبه الناس في خلق وفي خُلق كما قال النبي صلى الله عليه وسلم نفسه. ولكن طه حسين فصّل القول مقدمًا هذه الصفات على لسان شخصية ابتكرها، لتتعمق هذه الأوصاف؛ وتتضام جميعها لتقدم صورة نفسية وداخلية لجعفر، الأمر الذي لا نجده على هذا النحو في كتب السيرة والتاريخ.

وهناك ملمح آخر يمكن ملاحظته عند تقديم طه حسين لمثل هذه الشخصيات التي تمثل الصحابة، أنه يختم كلامه في الفصل بألفاظ تشرح عنوان الفصل وتفصله، بما يمثل حالة (ضبط الاستقبال) الذي تحدث عنه مايكل ريفيتر في كتابه (اتجاهات البحث الأسلوبي)، لأن توضيح العنوان وضبطه، مع تبريره يُشكل ضبطًا للاستقبال عند المتلقي في الأساس، لحرص المؤلف على عدم اتساع تأويل القارئ، موجهًا تأويله وفهمه على اتجاه معين. ففي حالة جعفر الذي كان عنوان فصله (ذو الجناحين)، نرى الشيخ الراوي يختم كلامه عن جعفر "**كيف السبيل إلى الحزن على شهيد لم يدركه الموت حتى رفع إلى السماء، وأُنبأ النبي بأن الله قد عوض من يديه جناحين مخضوبين بالدماء، يطير بهما في الجنة فيتبوأ منها حيث يشاء**"[٩٨].

وهكذا فإن شخصية جعفر برزت ملامحها وتجلت في كتاب (على هامش السيرة) باعتبارها شخصية قيادية مضحية؛ تحب الإسلام وتسعى لنشره، شجاع لا يهاب الموت، محب للجهاد والبذل، تحمل الصعاب وكان صبورًا على مفارقة وطنه والهجرة منه، وهي صفات لم ترد نصًا في أي كتاب من كتب السيرة، غير أن أفعاله تؤدي معنى هذه الصفات، ويتبقى أسلوب طه حسين الفني هو الفيصل في إقامة الفارق في تقديم هذه الشخصية.

وختم طه حسين كتابه بشخصية زيد بن حارثة، وكان عنوان الفصل (شوق الحبيب إلى الحبيب)، وقد وردت ترجمة زيد في كتاب الطبقات في الجزء الثالث تحت عنوان (الطبقة الأولى من البدريين من المهاجرين)؛ وذكره ابن سعد تحت عنوان (زيد الحب)، ونجد التلاقي بين طه حسين بمتخيله السردي وابن سعد أولًا في العنوان، حيث اعتمد كلاهما على قول النبي عليه الصلاة والسلام: أن أسامة بن زيد هو الحب وابن الحب.

ويصف ابن سعد زيدًا فيقول: "**كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين زيد بن حارثة عشر سنين، رسول الله أكبر منه، وكان زيد رجلاً قصيرًا آدم شديد الأدمة في أنفه فطس، وكان يكنى أبا أسامة**"[٩٩]. وقد تناول ابن سعد حياة زيد منذ وقوعه في الأسر على يدِ أناس أغاروا على أمه سعدى وهي

---

٩٨ – على هامش السيرة: ص٣٥٧.

٩٩ – كتاب الطبقات: حـ٣، ص٤٢.

تزيره أخواله؛ حتى استشهاده في معركة مؤتة، وكذلك تعرض لحادثة التبني وأيضًا زواجه من زينب بنت جحش وملابسات هذا الأمر وما نزل فيه من قرآن، ثم زواجه من (أم ايمن) ومواقفه مع النبي.[١٠٠]

ويعود طه حسين في تقديم شخصية زيد إلى الوصف النفسي، وبيان الجانب العاطفي في الشخصية، فهو ينقل لنا الصفات التي نعرفها عن هذا الفتى ولكن بأسلوب يغير كثيرًا من شكل الشخصية، فنراه يميل ناحية الوصف النفسي، وبيان طبيعة المشاعر التي تكنها نفوس شخصياته، وهو جانب لا يوجد في كتب السيرة أو التاريخ. فهو يصف العلاقة بين النبي وبين زيد "**وقع حب هذا الفتى في قلب الأمين، وملأ حب الأمين قلب الفتى، وإذا الأمين يعلم ذلك من نفسه ومن غلامه، فيأبى الفداء ويخالف عما ألف الناس، وإذا الفتى يخرج من هذه المحنة منتصرًا على نفسه وعلى أواصر القربى، وعلى ما ألف الناس من إيثار الحرية على الرق، ومن إيثار الوطن على الغربة، ومن إيثار الأهل على الأجانب في الدار والنسب**"[١٠١].

ونلاحظ أمرين في تقديم طه حسين لشخصية زيد بن حارثة، أولهما: تركيزه الشديد على الأحداث ويعد هذا خلاف نهجه في الكتاب إذ كان همه الأول هو الشخصيات، ولكن في فصل زيد نراه يحكي بأسلوب سرديٍ ضافٍ قصة وقوع زيدٍ في الأسر، وبيان حاله وحال أبيه وإظهار مشاعر أبيه تحديدًا، ثم هو يركز على قضيتي إلغاء التبني وطلاق زينب بنت جحش من زيد، مبينًا بأسلوب الناصح الحكمة من وراء القضيتين، وموضحًا في ذات الوقت حالة التسليم والرضا التي كان عليها المسلمون تجاه هذه الأحكام، ثم أخيرًا يحكي قصة استشهاد زيد، حاكيًا ما جرى في مؤتة بأسلوب رقيق، يغلب عليه الطابع الوجداني والعاطفي.

وثاني الأمرين: كثرة استشهاداته التي أوردها عن علاقة زيد بالنبي، أو ما يخص الأحداث التي كان زيد طرفًا فيها، إذ يورد مقولات النبي في زيد؛ ويحكي ما حدث في قضيتي التبني والطلاق بالرجوع إلى كتب التراث، وحتى معركة مؤتة ينقل ما يخص زيدًا بالنص عن ابن سعد "**لما أصيب زيد بن حارثة أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: فجهشت بنت زيد في وجه النبي، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتحب، فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذا شوق الحبيب إلى حبيبه**"[١٠٢]، وقد ختم طه حسين فصله عن زيد بهذا النص كما فعل ابن سعد في ترجمته لزيد.

وأغلب الظن أن كثرة المرويات الملحوظة في تقديم شخصية زيد عند طه حسين؛ ترجع إلى ارتباط هذه الشخصية بأحكام تمس حياة المسلمين في التبني والزواج، فلا بد من إيرادها نصًا. وكذلك أوردها طه حسين لأنها موجودة بتفصيل كبير في كتب السير مما يغنيه عن البسط، وكان دوره أن قام بعملية ربطٍ

---

١٠٠ – انظر: المصدر السابق، جـ٣، ص٣٨ وما بعدها.

١٠١ – على هامش السيرة: ص٤٠٩.

١٠٢ – على هامش السيرة: ص٤١١.

سردي بين هذه المرويات، والتغيير في شكلها العام بأسلوبه الأدبي المعروف، ويضفي اللمسة السردية على ما لا نص فيه مثل: قصة وقوعه في الأسر، ولهفة أبيه عليه، وقصة الفداء ورفض زيد له.

ب. الشخصيات الثانوية

هي الشخصيات التي تكون في موقع المساندة والمساعدة للشخصيات الرئيسية، ودورها مهم كذلك فلا تخلو أية رواية من هذه الشخصيات المساعدة، إذ تتعدد وظائفها فتكون "إما عوامل كشف عن الشخصية المركزية وتعديل سلوكها، وإما تتبع لها وتدور في فلكها؛ وتنطق باسمها، فوق أنها تلقي الضوء عليها وتكشف أبعادها"(١٠٣).

وللشخصيات الثانوية أهميتها الكبرى في توضيح سير الأحداث وإقامة الصراع وخلق التوتر، وبناء النسيج السردي في الحكاية، فهي تعد "الشخصية المساندة التي تعطي للعمل الروائي حيويته ونكهته؛ وقدرته على إبلاغ رسالته، وإن تجذير الصورة الدرامية داخل العمل الروائي لا يتم إلا من خلال تحريك الشخصيات الثانوية، التي تعطي للصراع ذروته ومعناه، ومن هنا فالشخصية الثانوية ليست حالة أو مادة عابرة أو مفروضة على مسرح الأحداث"(١٠٤).

ونرى في كتاب (على هامش السيرة) كثيرًا من الشخصيات الثانوية، التي كان دورها في تسيير الأحداث وارتباطها بالحركة محدودًا، فلم تحتل مكانًا فسيحًا في أرض الواقع كما ثبت في كتب السيرة، وكما تناولها طه حسين بقلمه كذلك. لذلك كان ظهورها قليلًا، ومؤطرًا بالمهمة التي يراد منها إنجازها خدمة للهدف الذي وضعه المؤلف، ونستطيع أن نرصد أكثر من عشر شخصيات يمكن أن تصنف على أنها شخصيات ثانوية أو مساعدة، ومع ذلك فقد احتل تقديم هذه الشخصيات الثانوية في كتاب (على هامش السيرة) صفحات كثيرة، وفصولاً متعددة، فضلاً عن تغطيتها مساحة زمنية طويلة تمتد من قبل مولد النبي بأزمنة متطاولة حتى السنة السادسة من الهجرة النبوية، وإن كان تركيز طه حسين في وصف الشخصيات الثانوية انصب على شخصيات كانت قبل ميلاد النبي وبعثته.

فمن هذه الشخصيات الملك (تبع الحميري)، الذي أورد ابن هشام قصته فحكى عن استيلائه على حكم اليمن، وذكر نسبه الطويل كذلك، وما يهمنا في قصة تبعٍ هذا ما ورد في كتب التاريخ من حكمه ليثرب، وتمرد أهلها عليه؛ فقامت الحرب بين تبع وبين أهل يثرب، حتى قابل حبرين من أحبار اليهود فدعوا الملك إلى الإيمان باليهودية فآمن، وأقنعاه بأن يكف يده عن يثرب لأنها مهاجر نبي آخر الزمان الذي اقترب ظهوره؛ ففعل وكرّ راجعًا على بلاده، وأمراه كذلك بتعظيم الكعبة والبلد الحرام، ففعل وكسا الكعبة أفخر الثياب وعظّم من شأنها. أي أن قصة الملك تبع في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ

---

١٠٣ – إبراهيم السعافين: تطور الرواية في بلاد الشام، دار المناهل، بيروت ١٩٨٧، ص٤٦٣.

١٠٤ – باسم عبدالحميد حمودي: مدخل إلى الشخصية الثانوية في الرواية العراقية، مجلة أقلام، ٦ع، وزارة الثقافة والاعلام – دار الشؤون الثقافية العامة، العراق ١٩٨٨، ص٤٢.

الطبري تدور حول هذه الأحداث، ولا تتعدى إلى شخصية الملك تبع ولا طريقة حكمه وسياسته، ولا تقدم أي ملمح يدل على شخصية هذا الملك، الذي ثبت وجوده في تاريخ العرب قبل الإسلام.[١٠٥]

وتناوله طه حسين في شيء من التوسع حين سرد كل ما يتصل بشخصه وحكمه، وأفرد له ولحكمه ولأبنائه ثلاثة فصول كاملة في الجزء الأول، بعناوين (القضاء – الردة – الطاغية)، غير أن تناوله لأبنائه كان ضعيفًا باهتًا، لا يكاد يظهر ملامح شخصية منها كما نراه في حالة شخصية الملك تبع. وبدأ طه حسين مع فتوحاته وتوسعاته "**خرج تبع من اليمن غازيًا في جيش لم تعرف الأرض قبله عددًا وعدة وبأسًا وحدة، وغنى وثروة، فلم يدع تبع في طريقه شيئًا أتى عليه إلا احتواه، ولا بلدًا مرّ به إلا أذله، وقد دان له النجد والغور، وأذعن له الحجاز والشام، وعنت لسلطانه مصر وإفريقية، وأمعن في المغرب حتى مرّ بعمود هرقل، ووطئ ساحل البحر المحيط**"[١٠٦].

لقد بالغ طه حسين في تثبيت صفة النصر والظفر عند تبع، إذ لم يرد في أي كتاب من كتب التاريخ التي كانت مصدرًا لطه حسين، أن مُلك تبع قد وصل إلى هذه البقاع من الأرض، ولكننا نلاحظ أن طه حسين خلع عليه صفة القوة والغلبة، والبأس الشديد، فصور رجلاً طموحًا لا حدّ لطموحاته، توسع في الغزو حتى دانت له نصف الأرض، وجعل منه صاحب أمل عريض كما في صفحة (٥٩) حين كانت "**نفس تبع في أكبر الظن تؤمل فتبعد في الأمل، كما عملت فأبعدت في العمل، وكانت تتمنى لو أتيح لها أن تطأ أمواج هذا البحر بهذا الجيش الذي وطئت به أكتاف الأرض. ومن يدري**".

وقد بسط طه حسين يده وقلمه في استخراج مكنونات تبع، ووصف داخله "**ولم يكن من اليسير على تبع أن يتبين العواطف التي كانت تثور في نفسه، والخواطر التي كانت تزدحم في قلبه، فقد كان محزونًا أشد الحزن، ملتاعًا أشد اللوعة لفقد ابنه العزيز، الذي كان يراه زينة لملكه وذخرًا لدولته، وقد كان مغضبًا أشد الغضب، محفظًا أشد الحفيظة ... وقد كان على هذا كله معجبًا بهذا النفر من الأوس والخزرج الذين لم يخافوه، ولم يخشوا بأسه**"[١٠٧]، لقد وصف طه حسين تبعًا بأوصاف كثيرة، وأظهر مشاعره أكثر من مرة، فجعل منه شخصًا يستمع إلى النصح والإرشاد، وأنه كان تقيًا ورعًا، آمن باليهودية التي لا تحريف فيها.

وهو شخص قد عظّم حرمة الكعبة وكفّ يده عن يثرب، بسط طه حسين كل هذا رابطًا بين كل هذه الأحداث وشخصية تبع المؤمنة التقية كما في صفحة (٦٩) حين أوضح نهايته "**وكان قد أنفق حياته منذ عاد إلى اليمن في صلاح ونسك، وتفقه للتوراة ونشر للدين**"، وتعددت مواضع وصفه بأنه خاشع

١٠٥ – انظر: سيرة بن هشام، جـ١، ص٣٧ وما بعدها.

١٠٦ – على هامش السيرة: ص٥٩.

١٠٧ – على هامش السيرة: ص٦٠.

متبتل، أذاع المعروف والخير، وهي صورة تخييلية لهذه الشخصية أقامها طه حسين، إذا قُورنت بتلك الشذرات القليلة التي وردت عنه في كتب التاريخ والسيرة.

وقريب من شخصية الملك تبع تقديم طه حسين لشخصية أبرهة الحبشي، صاحب حادثة الفيل؛ الحادثة الأشهر في أيام العرب قبل الميلاد الشريف، وقد ولد النبي على الأرجح في عام الفيل كما أورد أصحاب السير. وذكر ابن هشام في سيرته قصة أبرهة، ولكنه كان ذكرًا محدودًا كذلك، إذ عرض ابن هشام قصة النزاع بين أرياط نائب النجاشي على اليمن وأبرهة، وما كان من فوز أبرهة على أرياط وقتله، ولكن بعد أن جرح أبرهة في وجهه ولقب بأبرهة الأشرم لذلك، وبين ابن هشام بعد ذلك بناء أبرهة للقليس ورغبته في أن تعظم العرب بناءه هذا وتنصرف عن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم. وتتقدم الأخبار في بيان الأحداث حتى هلاك أبرهة وجيشه بحجارة من سجيل تحملها طير الأبابيل.[١٠٨].

ونلاحظ في سيرة ابن هشام وكتاب الطبقات أمرين، أولهما تناول هذه الكتب لهذه الفترة وأحداثها بإيجاز شديد؛ واختصار واضح، لأن مصنفي هذه الكتب يرون أن هذه الأحداث جميعها مقدمات لميلاد النبي عليه الصلاة والسلام، وإرهاصات بين يدي خروجه وبزوغ نجمه، فليست هذ الأحداث مقصودة لذاتها إذاً، فقدموها بهذا الشكل المختصر، ومروا عليها سريعًا دون الغوص في تفاصيلها الدقيقة. وثاني هذين الأمرين أن هذه الأحداث عندما قُدمت في المصادر التاريخية لم تُقرن بوصف الشخصيات التي قامت بها، أي أن وصف الملك تبع أو أرياط أو أبرهة؛ وغيرهم لم يرد في هذه المصادر؛ وكان جلّ اهتمامها بالأحداث فقط؛ وعلاقة هذا الحدث أو ذاك بمقدم النبي أو ميلاده أو بعثه صلى الله عليه وسلم.

أما تناول طه حسين لهذه الشخصيات الثانوية فكان مغايرًا لكتب السيرة، فقد توقف أمام الحدث والشخصية سواءً بسواء، فقدم لنا أوصافًا لبعض الشخصيات؛ صحيح أنه ليس وصفًا تنهض به ملامح كاملة لشخصية ما، ولكنه توقف أمام جانبها النفسي والعاطفي، وكذلك أمام أفكارها ومبادئها، كما بسط القول في أعمالها وسلوكها. فقد جعل من أبرهة الحبشي رجلاً دينًا ورعًا، يحب الدين ويعظمه ويحرص على نشر المسيحية "**وأما غيره من زعماء الجيش – ولا سيما عظيمهم أبرهة – فقد كانوا أصحاب نسك وطاعة ودين، وكانوا يضعون النصرانية في المكان الأول، ولا يكادون يحفلون بالسياسة واستعمار الأرض**"[١٠٩].

غالى طه حسين في ترسيخ هذه الصفة عند أبرهة، فأظهر شخصيته في صورة الرجل الرشيد؛ الذي يبتغي نشر كلمة الله، فيخلص لهذا الهدف ولا يحيد عنه، كما في صفحة (١٠٦) فقد قال: "**كان عظيمًا حقًا أن تذهب كل تلك الأماني والآمال التي ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه من قواد الجيش، ودفعتهم إلى ما دفعتهم إليه لينشروا كلمة الله، وليديلوا للنصرانية من وثنية الوثنيين**".

---

[١٠٨] – على هامش السيرة: ص ص ١٠٣ + ١٠٤.

١٠٩ – على هامش السيرة: ص ص ١٠٣ + ١٠٤.

وكان تقديم طه حسين لشخصية أبرهة؛ من خلال شخصية أخرى مثَّلها شيخٌ راهب هرم، جعل منه صفي أبرهة ونجيه، وكان أبرهة يستمع لرأيه ونصحه، فروى هذا الشيخ قصة حياة أبرهة منذ قدومه اليمن حتى مصرعه في حادثة الفيل. فأظهره محبًا للخير، راغبًا في نشر كلمة الله الحقة، وبرر أفعاله من خلال إظهار دخيلة نفسه، ورثى لحاله عندما أصابته حجارة السجيل "**وكم تأذى هذا الرجل، وكم احتمل من ألم في نفسه وجسمه، وكم ذاق مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة**"(١١٠). إن تقديم طه حسين لهذه الشخصية والملك تبع من قبلها كان مائلاً نحو الجانب التخييلي البحت، فرسمها من خلال أوصاف بعُدت بها عما أثبتته له كتب التاريخ ومصادر السيرة، ناهيك أن ذكرها في هذه المصادر كان قليلاً أو نادرًا من الأساس.

وتوجد كذلك شخصيتان أبرزهما طه حسين في كتابه، ولا يكاد ما ذكر عنها في كتب السيرة يتجاوز الفقرات المعدودة، هما (ورقة بن نوفل – زيد بن عمرو)، وقد ورد ذكر هاتين الشخصيتين في سيرة ابن هشام، في معرض حكايته عن بقايا دين الحنيفية السمحاء قبل مجيء الإسلام، وكانت كتب السير تقدم هذين الشخصين – وغيرهما – بوصفهما رافضين لما يحدث في قريش من عبادة للأصنام، فخرجا يطلبان الدين الحق، فأما ورقة فتنصر وأخذ حظه من الكتاب ثم عاد إلى مكة متبتلاً مترهبنًا، وعاش عمره متنسكًا. وكانت خديجة ترفع إليه شأن محمد أولاً بأول فيسديها النصح، وأثبتت المصادر إيمانه بالنبي وبدعوته، وأنه سينصره لو كان حيًا.

وأما زيد بن عمرو فلم يقتنع بالنصرانية أو اليهودية، وعلم من رهبان النصرانية أن بلده (مكة) هي موطن نبي آخر الزمان الذي أزف خروجه وبعثته، فيعود زيد أدراجه ويدركه الأجل مقتولاً إثر غدر حي من أحياء العرب به، وقبل خروج روحه يعلن إيمانه بالنبي الذي لم يعرف له اسمًا، أو حتى يدرك أنه بعث فعلاً، ويدعو له النبي صلى الله عليه وسلم؛ مؤكدًا أمام صحابته – عندما ذكروا زيدًا أمامه – أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.(١١١)

ودار وصف طه حسين لهاتين الشخصيتين حول هذه النقطة، إذ عظّم في وصفهما الشعور بالغربة عن قريش، من خلال إنكارهما ما تعبد قريشًا من أوثان وحجارة لا تنفع ولا تضر، وما تأتيه من فواحش وموبقات، بالإضافة إلى سعيهما الحثيث لتتبع الحقيقة والوصول إلى عبادة الله الحق، عبادته كذلك على الوجه الذي يرضى. فها هو يصف ورقة بقوله "**كان ورقة بن نوفل حازمًا عازمًا؛ رجل صدق، قد شهد مواطن قريش، وشارك في مفاخرها ومآثرها، ولكنه أنكر في نفر من قومه أولي حزم وعزم؛ وأصحاب فقه وبصر بالأمور – ما كانت عليه قريش من باطل وجهل، وما كانت تمعن فيه من عبادة هذه الأوثان التي لا تملك نفعًا ولا ضرًا ... ولكن ورقة بن نوفل إن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان**

١١٠ – على هامش السيرة: ص١١٣.

١١١ – انظر: سيرة بن هشام، جـ١، ص٢١٦ وما بعدها + ص ٢٥١ وما بعدها.

لقومه محبًا، ولوطنه مؤثرًا، وعلى ما ألف من عاداته المحمودة وسنته الكريمة حريصًا، فلم يمعن مع صاحبه عثمان بن الحويرث في أرض الروم"[١١٢].

جعل طه حسين من ورقة بن نوفل تلك الشخصية الحكيمة التي تهدي الحيارى، وترشد الضالين في المجتمع المكي الذي يعج بالضلال والجهل والحيرة، فقد كان موئلاً لكل سائل، وملاذًا لكل حائر، حتى أبو أجهل كان يسأله ويستنصحه – كما قال طه حسين، ومثل خديجة اما يعن لها من تساؤلات.

لقد بُنيت شخصية ورقة بن نوفل في كتاب (على هامش السيرة) على أمرين: أولهما سعيه الدؤوب للوصل إلى الله ودينه الحق، وكرر طه حسين هذه الصفة وأكدها أكثر من مرة، ففي صفحة (٢٤٨) نجد "**وما أخفي عليك يا ابنة العم أني قد أمعنت في النصرانية إمعانًا شديدًا، وأن قلبي تحدث إلي في بعض أوقاته ببعض الأمل، ولكني لم ألبث أن رجعت إلى الحزم والعزم والبصيرة**"، إن هذه الصفة الأولى – السعي وراء الحقيقة؛ لم يفتأ طه حسين يذكرها في ورقة مرة تلو الأخرى كما في صفحات (٣٠٧ – ٣١٠)، وذلك في حواره الطويل مع نسطاس الرومي الذي ينتظر هو الآخر نبي آخر الزمان كورقة.

أما الأمر الثاني الواضح في وصف شخصية ورقة في الكتاب، أنه يمثل المنارة الهادية لكل محتار وضال، ومن يطلب إجابة لسؤال أعيته إجابته، ومن يطلب تفسيرًا لما يحدث أمامه من ظواهر لا يستوعبها عقله، مثل أحاديثه مع خديجة حول نبوة زوجها "**قال ورقة: فإن ابنة عمي خديجة قد أقبلت عليّ ذات يوم فأنبأتني بالنبأ، تعيد عليّ حديث زوجها، وقد حفظته عنها كما سمعته منا. فإن شئت فاكتب**"[١١٣]، أقام طه حسين هنا من شخصية ورقة راويةً للأحداث فيحكيها لنسطاس الرومي من خلال ضمير المتكلم، وهكذا تتبلور شخصية ورقة في صورة الباحث عن الحق الساعي له، وكذا وضعه طه حسين في دور مهم، يتمثل في شخصية الناصح والموجه لبعض الشخصيات الرئيسية كخديجة.

ويسلك طه حسين ذات الاتجاه مع شخصية زيد بن عمرو، حيث يجعله راويًا للأحداث بنفسه "**قال الشيخ اتعلم يا بني أني رجل من قريش، أنكرت من أمر قومي شيئًا كثيرًا، وهاجرت من أرضهم أطلب في بلادك وعند قومك ما لم أجد في بلادي وعند قومي، وقد طوفت في بلادك ثلاثة أعوام وبعض عام، وها أنا ذا أعود منها يائسًا مخيب الآمال ...** "[١١٤]، تصرف طه حسين في شخصية زيد بن عمرو وتوسع في بيانها، فقد رسم شخصيته في صورة المهتدي إلى الحق، الرجل الذي عرف طريقه وسبيله جيدًا، وعرف غايته بعد أن طوف بالبلاد، وارتحل طويلاً بحثًا عن الدين الحق.

وقد قدم طه حسين بجانب شخصية زيد شخصية أخرى مبتكرة، هي العبد الرومي (صبيح)، وجعل زيدًا يبث دخيلة نفسه إلى صبيح هذا، ويكشف له ما بين جوانحه، وما يدور في ذهنه من فكر وتأمل،

---

١١٢ – على هامش السيرة: ص ص ٢٤٦ + ٢٤٧.

١١٣ – على هامش السيرة: ص ص ٣٠٨ + ٣٠٩.

١١٤ – على هامش السيرة: ص٢٢٠.

قال له زيد "**دين إبراهيم ليس في أرض الروم، ولكنه سيهبط في بلاد العرب، وقد آن أوان ظهوره فيها فأعود على وطني**"(١١٥).

إن تقديم شخصية زيد في كتاب (على هامش السيرة) اختلفت عن شخصية ورقة، فقد جعل طه حسين ورقة رجلاً محبًا لوطنه؛ مؤثرًا لقومه، فأقام معهم ينصحهم ويرشدهم ولم يفارقهم حتى أدركه الأجل. بينما زيد بن عمرو كان مفارقًا لقومه ولم يحب جوارهم، مبغضًا لما يفعلونه من شرك وموبقات، وزاد في بغضه لهم ما لاقاه من عمه (الخطاب بن نفيل) من إيذاء وبغي ليرده عن أفكاره وإنكاره على قومه.

كما أن مساحة الحيرة التي رسمها طه حسين في شخصية زيد قليلة مقارنة بما بسطه عند ورقة بن نوفل، كما أظهر زيد بن عمرو في صورة شخص يعرف هدفه جيدًا، ويؤمن بالنبي الذي بشره به أكثر من شخص، ولكن القدر لم يمهله فقد قُتل غدرًا على يدِّ مجموعة من قطاع الطرق، ويختم طه حسين حكايته عن شخص زيد بنفس ما ختم به ابن هشام حكايته عن زيد "**فقد ذُكر أن سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: استغفر لزيد بن عمرو، قال: نعم؛ فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحد**"(١١٦).

لقد كان طه حسين يتتبع شخصية هامشية في مصدر تاريخي، لم يرد ذكرها إلا في سطور قلقلة، فيقيم لها صرحًا متكاملاً من الحياة الداخلية والخارجية، ذلك لأن موقفًا واحدًا لها أثر فيه، أو لأن أفعالها القليلة ترقى بها إلى درجة النبل والسمو في نظره. وذلك مثل شخصية (أم أيمن) حاضنة النبي، فقد وردت ترجمتها القليلة في طبقات ابن سعد في الجزء العاشر، حكى من خلالها رعاية أم أيمن للنبي بعد وفاة أمه، وهو بعد في السادسة من عمره، وأنها إرثه من أبيه عبدالله، وبين ابن سعد قصة زواجها الأول وابنها أيمن منه، ثم زواجها الثاني من زيد بن حارثة وإنجابها أسامة. وأكد ابن سعد على قربها من النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يناديها (يا أمه) وكانت ذات دلال عليه، وكان الرسول يكثر معها المزاح والضحك. وتعرض ابن سعد أيضًا للمعجزة التي حدثت لأم أيمن حين شربت ماءً تدلى لها من السماء حين كادت تهلك من العطش، وانتهى ابن سعد في عرضه بوفاتها في أول خلافة عثمان.(١١٧)

أما طه حسين فقد أفرد لها فصلاً كاملاً بعنوان (الحاضنة)، حيث تناول معظم ما ورد عنها في ترجمة الطبقات، غير أنه ركز بشكل كبير على صفة لم يتطرق لها ابن سعد، هي صفة الحنان وسعة قلبها، وكثرة عطفها وعظيم حبها للنبي. لتصبح هي السمة الأبرز في عرض طه حسين لشخصيتها "**وعطف الله على هذا اليتيم قلوبًا ملئت حبًا وفاضت حنانًا ورحمة؛ قلما يظفر بها المنعمون المترفون من أبناء الأغنياء، هذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم من أبيه الفقيد ... لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم**

---

١١٥ – على هامش السيرة: ص٢٢٤.

١١٦ – على هامش السيرة: ص٢٢٥.

١١٧ – انظر: كتاب الطبقات، جـ ١٠، ص٢١٢ وما بعدها.

حتى يلقي الله محبته في قلبها، وحتى يعطفها الله عليه، وحتى يجعله لها قرة عين، وحتى يصبح وجهه النضر ومضة ابتسامة في حياتها المظلمة، ويصبح شخصه الضئيل العظيم منقذًا لها من هذا اليأس القاتم، وعزاءً لها عن هذا الشقاء العظيم، وإذا هي تألف الطفل وتكلف به، وإذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه"[١١٨]. كانت هذه هي الصفة الأوضح التي خص بها طه حسين شخصية أم أيمن، وبالغ في إظهارها.

ولا نعدم وصف طه حسين لشخصية أم أيمن من الناحية الجسدية والنفسية، وقد امتد وصفه النفسي تحديدًا لها صفحات طوال، فنقل مشاعرها وأبرز عواطفها معظم الفصل، فقد كانت "**فتاة في ريعان شبابها ومبتدأ الحياة، لم تنس وطنها القديم ولم تألف وطنها الجديد، ولم تسل عن حريتها ولم تأنس إلى رقها، نفسها معلقة بين لونين من ألوان الحياة، كان أحدهما صفوًا كله وهو لون الحياة العزيزة في بلد عزيز وبين قوم أعزة كرام، وكان الآخر يوشك أن يكون كدرًا كله، لا تنظر إليه إلا رأته مظلمًا حالكًا**"[١١٩].

أكد طه حسين في شخصية أم أيمن على أمرين: أولهما كلفها الشديد بالنبي محمد وهو ما زال طفلاً، وما أسبغته عليه من عطف ومودة، عوضته عن فقد الأم في هذه السن الصغيرة. وجعل طه حسين هذه الرحمة وهذا الحنان هبة ربانية لا دخل لأم أيمن في إيجادها أو تنميتها، وتعد في ذات الوقت تعويضًا قويًا لنفس الفتاة وما تحسه من مشاعر القهر والذل في وطن جديد عليها، بعد أن كانت حرة عزيزة فإذا هي أمة مسترقة في بلد لا تعرف ناسه ولا لغته، فمثَّل لها هذا الغلام وتلك المشاعر إشراقة نور في الظلام الحالك، ومنارة هدى في حياتها الكئيبة.

أما الأمر الثاني الذي أبرزه طه حسين في تقديمه لشخصيتها؛ هو مبادلة النبي لها حبًا بحب، وعطفًا بعطف، وردّه الجميل لها بعدما كبر وعظُم شأنه صلى الله عليه وسلم، فقد اهتم بها وأنفق عليها ورعاها، بل وزوجها من مولاه زيد بن حارثة. ومن أجل هذين الأمرين معًا جاء وصف طه حسين لشخصية أم أيمن متراوحًا بين المتخيل الفني الصرف؛ وذلك فيما يخص حياتها الخاصة ومشاعر العطف والحنان التي أحستها تجاه النبي، والالتزام بالنصوص التي وردت عنها في كتب التراث، من رعايتها للنبي، أو حب النبي لها وزاحه المتكرر معها، فقد دار طه حسين في فلك هذه المرويات مقدمًا لها بأسلوب أدبي ضافٍ، حاول من خلاله إظهار معنى ردّ الجميل من قبل النبي لأم أيمن.

وقد سلط طه حسين الضوء كذلك على عدة شخصيات ثانوية، كانت في مجملها ممهدة لظهور الإسلام، ومعضدة لصدق هذه الرسالة، وكل هذه الشخصيات وردت في كتب السيرة بشكل مقتضب،

---

١١٨ – على هامش السيرة: ص ص ١٢٣ + ١٢٤.

١١٩ – على هامش السيرة: ص١٢٣.

ولكن بناء طه حسين لها وتناوله إياها جعلها تظهر في شكل مختلف. فمن هذه الشخصيات (بحيرى الراهب – عداس – باخوم البناء – نسطاس الرومي).

فأما بحيرى الراهب فقد وردت قصته في سيرة ابن هشام الجزء الأول في صفحة (٢٠٤)، وما كان منه حين استقبل تجارة قريش لأن فيها محمد بن عبد الله لأنه رأى الغمام يظلله، ولم يكن يفعل ذلك من قبل، فذكر أنه فحص النبي وسأله أسئلة عرف منها أنه نبي آخر الزمان. أما عداس فقد ورد حديثه في الجزء الثاني من سيرة ابن هشام صفحة (٦٩)، وحكى خبره في البستان مع النبي إبان رحلته للطائف. أما باخوم (البناء / الصناع) فلم يرد له ذكر إلا في سطر واحد تحت اسم (ياقوم)، وذلك في الجزء الأول من سيرة ابن هشام صفحة (٢١٩)، فذكر ابن هشام أنه من عاون قريشًا على بناء الكعبة قبل البعثة بخمس سنوات حين هدم السيل أجزاء منها. أما نسطاس الرومي فلا نعثر له على ذكر البتة في كتب التاريخ والسيرة، بل يتم الإشارة فيها إلى وجود حانات رومية بدون تخصيص اسم معين، وبالتالي فإن شخصية نسطاس الرومي هذه تصبح شخصية مبتكرة تساهم في بيان الأحداث وإقامة حبكتها.

دار معظم وصف طه حسين لهذه الشخصيات الثانوية، حول بيان مشاعرها النفسية حول القضية الأهم في حياتهم؛ وهي نبوة محمد عليه السلام، وما رأوه من الآيات الدالة على هذه النبوة – قبل أن يعرف النبي ذلك عن نفسه. وينقل لنا طه حسين في أكثر من موضع ما تحسه هذه الشخصيات، وبيان تصديقهم لما يرون ويشاهدون من معجزات، ودلائل على هذه النبوة "**لقد رأيت! أقسم لقد رأيت! أشهد بالمسيح والصليب لقد رأيت، لقد رأيت واقتنعت، لن يبلغ نفسي الشك بعد اليوم. لقد رأيت.. أقسم لقد رأيت. والراهب الشيخ يهدئه ويبارك عليه، ويسأله عما رأى وخلاصة ما اقتنع به، وما يزال الراهب الشيخ بهذا المتوله الهائم حتى يرد عليه بعض الهدوء، ويظفر منه وممن حوله بشيء من الأناة والوقار. ثم يسأل الراهب الشيخ صاحبه (بحيرى) وقد اطمأنت نفسه أن يقص عليه بدء حديثه. فيقول:...**"[١٢٠].

وكان ديدن طه حسين في مثل هذه الشخصيات الثانوية أن ينقل إليها عملية الحكاية، لتقوم هي بدور الراوي عن طريق ضمير المتكلم، وهذا الأمر جعل من عملية السرد ناقلة لما في داخل الشخصية من مشاعر وأفكار، وتنطلق في التعبير بلا قيود عما تحسه. مثل ما نجده في صفحة (١٩٧) عندما يتكلم بحيرى عن نفسه "**فإني لا أصدق الناس جميعًا ولا أكذب الناس جميعًا، وأنا آمن لمن عهدي به الأمانة والصدق، وأرتاب فيمن عهدي به الخيانة والمين بعد آيات تدل عليه، وعلامات تهدي إليه**". ونلاحظ كذلك في هذه الشخصيات السابقة أن ذكرهم كما ورد في السيرة يتراوح بين السطر الواحد إلى الصفحة الواحدة فقط، دون الدخول في وصف دقيق للشخصية ذاتها، بل كان التركيز الأكبر على الحدث ودلالته على النبوة تصديقًا وتعضيدًا، ولكن تناول طه حسين لها كان مطولاً، فوصف الشخصيات وأسهب في

١٢٠ – على هامش السيرة: ص١٨٧.

بيان دواخلها، وجعل منها شخصيات باحثة عن الحق، وناشدة للهدى، ومؤمنة بالنبي وما يزال بعد صغيرًا يافعًا.

وقد سمح طه حسين لهذه الشخصيات – كما أشرنا – أن تمسك زمام الحكاية، فنقل إليها عملية الرواية، ومن ثم روت ما حدث لها أو أمامها، ويتخلل هذا تقديمًا للشخصية وبناء لها، مثل ما فعل مع شخصية عداس وشأنه مع سيديه (عتبة وشيبة ابني ربيعة) وكذلك مع النبي، وقد قدم طه حسين هذه الشخصية في فصل بعنوان (حديث عداس)، فقد أجلس عداسًا مع سيديه ليحكي لهما حكايته، وليبرر لهما لماذا قبل رأس النبي وقدميه، فقال عن نفسه وأنه: "**رجل من أهل نينوى، نشأت في بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والإمارة، فقد أتيحت لهم الثروة والغنى، وكنت موفور الحظ من النعمة...**"[١٢١]، ويظل عداس يحكي عن نشأته وحاله وصفاته، حتى يصل إلى إقناع سيديه/ المتلقي بأن ما قام به من تقبيل للنبي هو عين الصواب، لأنه كان ينتظر إشراق هذا النور، ومتأكد من صحة هذه النبوة، وأكد هذا في نهاية حديثه مع سيديه ص (٣٦٤) حين قال: "**فلما بلغته سمعت منه كلامًا ما سمعت مثله في هذه الأرض، فلما سألته عن ذلك سألني عن موطني؛ فلما أنبأته به قال: هذا موطن نبي الله يونس، فما شككت أنه صاحبي الذي أقبلت ألتمس أنباءه**".

وليس ببعيد عن هذا الوصف ما فعله المؤلف مع شخصيتي (باخوم – نسطاس الرومي)، فقد نقل لنا وصفًا دقيقًا لباخوم هذا، ولم يورد اسم (باقوم) الذي ذُكر عند ابن هشام، وكان عنوان الفصل أيضًا (حديث باخوم)، ونرى باخوم هو الراوي، حين أمسك زمام الحكاية، فأخذ يقص علينا ما حدث له إبان وجوده في مكة حين هدم السيل الكعبة، ومشاركته في عملية إعادة بنائها وما صاحب ذلك من ملابسات. والملاحظ أن طه حسين قد أورد صفات جسدية لشخصية باخوم وكذلك عقلية، فهو شيخ كبير وقور، معروف بالأناة والهيبة، كثير السفر والترحال، ويلاحظ كذلك تركيز باخوم في روايته على صفات النبي محمد وتأثره به، وخاصة عندما رأه يحل الإشكال الذي وقعت فيه قريش بشأن رفع الحجر الأسود مكانه. واستهدف طه حسين من خلال شخصية باخوم إظهار بعضًا من صفات النبي قبل البعثة بوقت قليل، ليؤكد أن شيئًا عظيمًا على وشك الحدوث، وهو ما أكدت عليه شخصية باخوم مرارًا.[١٢٢]

أما شخصية نسطاس الرومي (صاحب الحان) فقد سلك فيه طه حسين مسلكه في باخوم القبطي، فقد أورد صفاته الشخصية كما في صفحة (٢٦٣)، ثم ركز على الصفة الأبرز فيه وهي تتبعه لنبي آخر الزمان وانتظاره لمبعثه، وأنه كان يجوب الأرض ويطوف بالآفاق، ويستقر بالمدن التي هي مظنة مبعثه. وقد استغرق بيان هذه الصفة وبسطها من صفحة (٣٠٧) حتى صفحة (٣١٠)، وكانت طريقة تقديم طه حسين لهذه الشخصية من خلال حوار مطول بين نسطاس وورقة بن نوفل، وقد صرح نسطاس هذا

١٢١ – على هامش السيرة: ص٣٦٢.

١٢٢ – على هامش السيرة: ص٢٥٣ وما بعدها.

بمعرفته لنبوة محمد في أكثر من موضع "**كان يجب أن نؤذن قريشًا بمطلع الفجر، وأن نهيئها لما سيغمرها من نور، ونعدها لما تضمر لها الأقدار مما تحب وما تكره**"[١٢٣]، ويعلن نسطاس إيمانه بهه النبوة، واستعداده – كما فعل ورقة – الدفاع عن النبي ودعوته حتى وفاته، ففي صفحة (٣١١) يؤكد "**وليتني كنت حاضرًا أمره؛ ولكنك لن تحضر من أمره إلا قليلاً، ولكني لن أحضر من أمره في هذه الأرض إلا قليلاً، والأقدار تجري بما تريد يا ورقة، وإنما نحن مأمورون، وعلينا أن نمضي لما أُمرنا به حتى يبلغ الكتاب أجله**".

إن بناء طه حسين لشخصياته الثانوية في كتابه (على هامش السيرة)، كان يميل في معظمه نحو المتخيل السردي، أكثر منه التزامًا بما دُون في كتب التاريخ والسيرة عنها، لأن ما ورد عنها كان قليلاً وفي بعض الأوقات نادرًا، شذرات لا تقيم بناءً لشخصية، ولا ترسم ملامح كاملة. وهنا سمح طه حسين لنفسه بالتوسع ملتزمًا بالمنهج الذي اختطه في مقدمة كتابه، حين أكد أنه ترك لنفسه فسحة فيما يخص الأحداث والشخصيات، لينطلق خياله الأدبي راسمًا هذه الشخصيات وغيرها، وكان المتخيل السردي أوضح ما يكون ظهورًا في الشخصيات الثانوية ووصف ملامحها الجسدية والنفسية والفكرية.

كما أننا لن نعدم في ذات الوقت التزامًا من طه حسين بالأطر العامة، التي وردت في المصادر التاريخية عن هذه الشخصيات، غير أنه خالف هذه القاعدة في اسم (باقوم) حين أسماه (باخوم)، ولعل طه حسين عدل عن الاسم الصحيح بتغيير حرف (القاف) إلى (الخاء) رغبة في تيسيير النطق، فالأول حرف مفخم مخرجه من اللهاة مع أقصى الحنك الأعلى والثاني حرف رخو، فالنطق بكلمة باخوم أيسر وأسلس من باقوم، وهو ما يناسب لغة طه حسين التي تميل إلى الرشاقة والعذوبة والموسيقية.

وكذلك ما كان من شأن نسطاس الرومي، حين ختم قصة نسطاس بأن جعله شيخًا عجوزًا هرمًا، يشارك مع الروم في حربهم ضد جيوش المسلمين في خلافة أبي بكر، وتحديدًا في غزوة (اليرموك)، وجعله طه حسين يخرج من بين صفوف الروم ليقابل قائد جيش المسلمين (خالد بن الوليد)، ويخبره بإسلامه ويحكي له كيف أنه كان شاهدًا على بزوغ فجر الإسلام ونور النبوة قديمًا في مكة، ويعرفه بنفسه وأنه نسطاس الرومي (ساقي الحان) [١٢٤]، ومن المعروف تاريخيًا أن من فعل ذلك الموقف في معركة اليرموك قائد من قادة الروم اسمه (جرجه) وليست شخصية نسطاس التي أوردها طه حسين في كتابه.

وثمة ملمح آخر نرصده في طريقة تقديم طه حسين لشخصياته، وهو استعانته بشخصيات ثانوية مخترعة، ليس لها وجود حقيقي في كتب السيرة أو التاريخ، فهي شخصيات فنية قام الكاتب بتخليقها رغبة منه في تعضيد الحبكة السردية، وبنائها بناء محكمًا مقنعًا، وقد ظهرت أهداف طه حسين من بناء مثل هذه الشخصيات حين جعل الحكمة، والخبرة، والبحث عن الحقيقة صفات ملازمة لها على الدوام. وجعل

١٢٣ – على هامش السيرة: ص٣٠٧.

١٢٤ – على هامش السيرة: ص٢٣٩.

في سلوكها شيئًا من الغموض، ليبدو "سلوكها غير منطقي، فتختلط الأمور وتكون بطيئة في البداية، ثم لا تلبث أن تتقدم وتكشف عن جوانبها الثرية كلما تطورت الحكاية، فهي شخصيات حافلة بالعواطف المعقدة، والتغيرات المفاجئة"[١٢٥].

ولقد أورد طه حسين مثل هذه الشخصيات على وجهين، فإما أن تكون غفلاً من الأسماء والتعريف، ويقدمها تحت قالب أو وصف ثابت لا يتغير (الشيخ الراهب – الأمير – حاكم المدينة – راهب الإسكندرية)، وإما أن يقدمها باسمها الذي اختاره لها، وهي في معظمها أسماء رومانية مثل: (كيمون – كلكراتيس – نكياس – أندروكليس). وكان طه حسين يعمد إلى هذه الشخصيات فيجعلها مكشوفة أمامنا فكريًا ونفسيًا، ويتغاضى عن وصفها جسديًا، وكان يقدم كثيرًا من أحداث بعض الفصول بجعل هذه الشخصيات المخترعة تقوم بدور الراوي الراصد أو المشارك.

ونرى الأسلوب المفضل عند طه حسين في تقديم هذه الشخصيات الثانوية المخترعة والتاريخية؛ هو الحوار، فتجري هذه الشخصيات حوارًا مع بعضها البعض، ويُظهر المؤلف خلاله التكوين الفكري والنفسي الذي يرسم الشخصية به "**قال أندروكليس وقد رد إلى هدوئه وأغرق في الضحك: فأنت تريد أن تهاجر إلى الصحراء، وأن تكون راهبًا فيها من رهبات (دينوزوس)؟ وأي طريق لا أرى فيه بأسًا ... قال كلكراتيس: لا تسخر ولا تمزح فما فكرت في رهبانية ولا نسك، وقد قلت لك إن لي في الحياة أربًا، وما أريد أن أتخذ لي في طرف من أطراف الصحراء موضعًا ولا ديرًا ... قال أندروكليس: لقد كان يخيل إلي أني فهمت عنك، ولكنك تردني إلى الغموض والحيرة**"[١٢٦]، هذا جزء من حوار طويل جرى بين الأصدقاء الثلاثة (حاكم المدينة – أندروكليس – كلكراتيس) ثم أُضيف لهم الراهب العجوز، وكان هذا الحوار في فصل بعنوان (الفيلسوف الحائر) في بداية الجزء الثاني، واستغرق قرابة سبع وسبعين صفحة.

وقد ضمَّن طه حسين ذلك الفصل – من خلال حوار شخصياته المخترعة – خلاصة فكره حول الدولة الرومانية، وأدبها وآلهتها، وما كان ينتشر فيها من إرهاصات حول اقتراب نبي آخر الزمان، وما حل بالدولة الرومانية من ضعف وظلم في هذا الوقت، وانتشار الشك المبني على تأمل وبحث وراء الحقائق عند كثير من مواطني الدولة الرومانية آنذاك. ليجعل طه حسين من شخصياته المخترعة تقنية سردية أجاد توظيفها بشكل ملموس، واستطاع تطويعها لتكشف الجوانب المختلفة للشخصيات الرئيسية والثانوية، أو تنقل لنا الأحداث عن طريق روايتها من وجهة نظرها، فتتشكل رؤية جديدة وزاوية نظر لهذه الأحداث يستهدفها طه حسين، ويزيد من قوة بنائها أسلوب طه حسين الأدبي الذي كان يمزج المتخيل السردي بالمرويات التاريخية في صورة شخصيات وقفت موقفًا وسطًا بين هذا المتخيل ومصادرها الواقعية في كتب التاريخ.

---

١٢٥ – عبدالفتاح عثمان: بناء الرواية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢، ص١١٦.

١٢٦ – على هامش السيرة: ص١٦٨.

خاتمــة

كشف طه حسين في كتابه "على هامش السيرة" عن خطاب سردي جديد، قدم من خلاله بعض مواقف وأحداث من السيرة عبر الشخصيات بشكل لم يُسبق إليه، فجاءت مروياته بشكل يتخطى التصنيف تبعًا للنوع الأدبي، ليصبح الكتاب غير مرتهن تحت جنس أدبي بعينه؛ فلا هو سيرة أو رواية أو قصة قصيرة. وقد عمد طه حسين في كتابه "على هامش السيرة" إلى توسيع الواقع التراثي ليُحمله ما يريد من أفكار ودلالات عبر مقاربة سردية يقوم فيها التخييل بدور الوسيط، فأظهر الشخصيات بأسلوب قوي جذاب، فرسمها بحيوية فائقة وبثّ فيها الحياة؛ مما سهّل عملية فهمها وإدراك الإيحاءات المبتغاة من طريقة تكوينها وبنائها.

وقد توصلت الدراسة إلى بعض النتائج:

. كان الجدل بين الواقعي والتخييلي ظاهرًا في كتاب (على هامش السيرة). إذ أراد طه حسين أن يقدم بخياله السردي الوجوه المنسية والمجهولة في التاريخ الموثق، وقد كشف خياله عما فات المؤرخون وكتاب السيرة من بواطن الأخبار ودواخل الشخصيات، فإذا كان المحققون قد حرصوا على كتابة الواقع المرئي الظاهر الموثق؛ فقد حرص طه حسين على كتابة التاريخ السري اللامرئي في الروح الإنسانية، ومن هنا كان التخييل عماده في الكتابة والتصوير.

. تنوعت طرائق تقديم الشخصيات عند طه حسين في كتاب "على هامش السيرة"، فنرى التقديم عبر الأحلام والرؤى، أو الراوي بضمير الغائب أو المتكلم، أو عن طريق توظيف الحوار لرسم ملامح شخصية معينة، وأيضًا عن طريق تكنيك البوح الداخلي (المنولوجات).

. مزج طه حسين في وصف شخصياته بين ما ورد في كتب السير والتراجم عنها؛ وبين المتخيل الأدبي، فعمل على إعادة تخليق هذه الشخصيات وتقديمها بشكلٍ جديد يضفي مزيدًا من الإقناع لدى المتلقي.

. كان طه حسين يلتزم ما وسعه بالأصل التراثي، وما ورد عن هذه الشخصية أو تلك في كتب السيرة والتاريخ؛ إذا كان ما يتناوله في هذه الشخصية متصلاً بالنبي قولاً أو فعلاً، فكان يورد النص الأصلي، أو يوثق في الهامش ما أورده في المتن.

. كثُر ورود الشخصيات الثانوية في كتاب "على هامش السيرة"، ووظفها الكاتب بشكل يلقي مزيدًا من الضوء على الشخصيات الرئيسية، أو تكشف جوانب إضافية من الأحداث والأفكار. وقد تسهم في حركية بعض الأحداث.

. عني طه حسين بالكشف عن دواخل الشخصيات بشكلٍ عام والرئيسية بشكل خاص، فنقل لنا جانبًا من أحاسيسها ومشاعرها وأفكارها، بما يظهر جوانب معتمة في حياتها لم يتطرق إليها كُتاب السير من قبل.

. جعل طه حسين من بعض شخصيات كتابه رواة لبعض الأحداث والحكايات في بعض الفصول، مما جعل الرؤية السردية تتعدد بتعدد هذه الشخصيات التي تحكي هذه الأخبار والمرويات من وجهة نظرها، وطريقة تفكيرها.

. استعان طه حسين في كتاب "على هامش السيرة" بالعديد من الشخصيات المبتكرة، معتمدًا على التخييل الفني فقط في تكوينها دون أن يكون لها أصل تاريخي، وكانت الغاية أدبية وفنية من إيجادها وتوظيفها، فقد استطاع من خلالها أن يقدم بعض الأفكار؛ ويُظهر حقيقة المشاعر لدى شخصيات حكاياته.

. التزم طه حسين قدر ما استطاع بما حدده من منهج في مقدمة كتابه، حيث توسع في سرد الأحداث وتقديم الشخصيات؛ بما لا يتنافى مع الأطر العامة المُحددة لها في كتب التاريخ والسير. لكنه كان يلتزم الدقة والتوثيق عندما يتصل الخبر بالرسول – صلى الله عليه وسلم، أو تناوله لشخصية متصلة بأي سبب بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يتضح لنا أن عملية بناء الشخصيات ووصفها عند طه حسين في كتابه "على هامش السيرة"؛ قد اعتمدت مبدأ البين بين، حين وضعها طه حسين في موقف وسط بين الواقعي والمتخيل، وحين عمد إلى إظهار بواطنها النفسية وبواعثها الفكرية ليبرر المتلقي ويقنعه بمواقفها؛ ويجعله متفهمًا لها بشكل كامل. وكانت الغلبة في نهاية المطاف لجانب التخييل الفني فيما يخص الشخصيات الثانوية والشخصيات المخترعة، ولكن الشخصيات الرئيسية تقع في تلك المنطقة الوسط بين الواقع والتخييل، وذلك لوفرة ما ورد عنها من أخبار ومرويات في كتب السير والتراجم.

المصادر والمراجع

أ. المصادر

- أبو محمد عبدالملك بن هشام: السيرة النبوية، علق عليها (عمر عبدالسلام تدمري)، ط٣، دار الكتاب العربي، لبنان ١٩٩٠.
- الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق (عبدالله بن عبدالمحسن التركي)، ط١، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، السعودية ١٩٩٧.
- طه حسين: على هامش السيرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤.
- محمد بن سعد بن منيع الزهري: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق (علي محمد عمر)، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠١.

ب. المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم الحجري: المتخيل الروائي العربي (الجسد – الهوية – آخر) مقاربة أنثروبولوجية، ط١، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠١٣.

- إبراهيم خليل: بنية النص الروائي، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠١٠.
- إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب السردي دراسة تطبيقية، ط١، دار الآفاق، الجزائر ١٩٩٩.
- أحمد إبراهيم الهواري: البطل المعاصر في الرواية المصرية، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦.
- أحمد صبرة: متعة السرد، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية ٢٠١٢.
- أحمد عوين: دراسات في السرد الحديث والمعاصر، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٩.
- أحمد محمد عبدالخالق: الأبعاد الأساسية للشخصية، ط٢، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٨٣.
- أسامة محمد البحيري: مقارنات في السرد العربي، ط١، دار الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٢.
- الصادق قسومة: علم السرد (المحتوى والخطاب والدلالة)، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٠.
- بيرسي لوك: صنعة الرواية، ت (عبدالستار جواد)، ط٢، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ٢٠٠٠.
- جان إيف تاديه: الرواية في القرن العشرين، ت (محمد خير البقاعي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨.
- حسين خمري: فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، ط١، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠١.
- ديفيد لودج: الفن الروائي، ت (ماهر البطوطي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢.
- رفيف رضا صيداوي: الرواية العربية بين الواقع والتخييل، ط١، دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٨.
- ريتشارد س. لازورس: الشخصية، ت (سيد محمد غنيم – محمد عثمان نجاتي)، دار الشروق، القاهرة ١٩٩١.
- سعيد بنكراد: سيميولوجية الشخصيات الروائية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ٢٠٠٣.
- سيمون كلابيه فلادوم: نظريات الشخصية، ت (علي المصري)، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان ١٩٩٣.
- صبيحة عودة زغرب: جماليات السرد في الخطاب الروائي، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٦.
- صلاح صالح: سرديات الرواية العربية المعاصرة، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.
- عاطف جودة نصر: الخيال مفهومه ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤.
- عبدالفتاح الحجمري: تخيل الحكاية، المجلس العلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨.
- عبدالله إبراهيم: السردية العربية، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٠.

- ـــــــ: المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٠.
- عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة، رقم السلسلة ٢٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٨.
- عدالة أحمد محمد إبراهيم: الجديد في السرد العربي المعاصر، ط١، دار الثقافة للإعلام، الشارقة – الإمارات ٢٠٠٦.
- عدنان علي الشريف: الخطاب السردي في الرواية العربية، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن ٢٠١٥.
- فيليب هامون: سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ت (سعيد بنكراد)، دار كرم الله، الجزائر ٢٠١٢.
- محمد الداهي: سيميائية السرد بحث في الوجود السيميائي المتجانس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٩.
- محمد بوعزة: تحليل النص السردي – تقنيات ومفاهيم، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠.
- محمد معتصم: المتخيل المختلف (دراسات تأويلية في الرواية العربية المعاصرة)، ط١، منشورات الضفاف، بيروت ٢٠١٤.
- ناصر الدين محمد: الشخصية في العمل الروائي: مجلة الفيصل، ٣٧ع، الرياض ١٩٨٠.
- وينفريد هوبر: مدخل إلى سيكولوجية الشخصية، ت (مصطفى عشوي)، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر ١٩٩٥.
- يوسف الإدريسي: الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ط١، منشورات الملتقى، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء ٢٠٠٥.